رحلة من نابلس إلى إسلامبول

الكتاب: رحلة من نابلس إلى إسلامبول

الكاتب: عبد القادر أبو السعود المقدسي

تحقيق: د. عماد عبد السلام رؤوف

الطبعة الأولى: 2015

جميع الحقوق محفوظة

الناشر: دار الزمان
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - سوريا: ص.ب 5292
تلفاكس: 00963 11 5626009
موبايل: 00963 932 806808

E-mail: zeman005@yahoo.com
E-mail: zeman005@hotmial.com
Website: www.darzaman.net

الناشر: مكتب التفسير
للنشر والإعلان

اربيل - شارع المحاكم - تحت بناية فندق شيرين بالاص

هاتف: 2221695 - 2230908 - 2518138
موبايل: 07504605122 - 07701387291
E.mail: tafseeroffice@yahoo.com
E.mail: altafseero@hotmail.com
E.mail: tafsseroffice@maktoob.com
web site: www.al-tafseer.com

الإخراج الداخلي: **دار الزمان**
تصميم الغلاف: **م. جمال الأبطح**

عبد القادر أبو السعود المقدسي

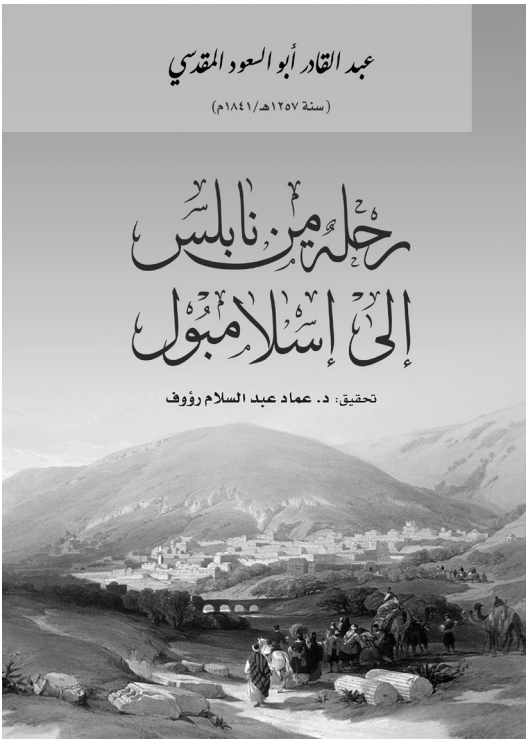

رحلة من نابلس إلى إسلامبول

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

المؤلف

ليس على مخطوطة الرحلة اسم مؤلفها، كما خلت من عنوان، ربما لسقوط الورقة الأولى منها، وقد اكتفى مفهرسها بالقول أنها «لم يُعلم مؤلفها»[1]، بيد أننا توصلنا إلى أن اسمه (عبد القادر) بدلالة ما ذكره في آخر قصيدة لامية له يمتدح فيها أسرته وينوه بأقاربه:

وما أنشدَ الوَلهانُ عبد القادر فهذا مديحي فيكم وتغزُّلي

وليس في الرحلة بعد هذا ما يكشف عن حياته، إلا أنه يفهم منها أنه من أسرة مقدسية عريقة تعرف بآل أبي السعود، وقد عَبَّر هو عن اعتزازه بها وبتراثها الروحي والثقافي. وكان مصطفى مراد الدباغ قد ذكر في كتابه (بلادنا فلسطين)[2] أن آل أبي السعود من أقدم العائلات المقدسية حيث تقطن القدس منذ نيِّف وسبعة قرون، وأن لها أملاك كثيرة فيها، منها الزاوية الفخرية التي تضم احدى أهم المكتبات في بيت المقدس المعروفة بالمكتبة الفخرية[3]، وكانت الزاوية الفخرية تعرف كذلك باسم الزاوية الرفاعية، وتقع داخل الحرم المقدسي الشريف، ويتولى عليها شيوخ من عائلة أبي السعود. ومن أعلام الأسرة صوفية ومفتون، منهم محمد أبو السعود، الذي تولى إفتاء الشافعية في القدس، وتولى الخطابة التدريس وتوليته الأوقاف المهمة للحرمين القدسي والإبراهيمي، وتوفي في اسلامبول سنة 1228هـ/1813م[4].

---

(1) فهرس دار الكتب المصرية، قسم الجغرافيا، ص38.

(2) ج10 ق2. ص330 دارالهدي- كفر قرع 1990.

(3) ضمت هذه المكتبة نحو عشرة آلاف كتاب.

(4) جاء في تاريخ جودت أن شيخ الإسلام في الدولة العثمانية دري زاده طلب من الشيخ موسى الخالدي قاضي العسكر أن يحضر أبا السعود إلى استانبول تقديرا لمكانته وعلمه، فسافر هذا إليه وأحضره مع خدمه وأولاده وأحفاده «وأنزل في دار تجاه شيخ الإسلام قرب جامع الفاتح، وأحسن إليه ولجماعته بعطايا من قبل السلطان محمود خان، وكان الشيخ أبو السعود هرماً قد بلغ مائة وإثنتي عشرة سنة فلم يقدر أن يتوجه لسراي السلطان، ورعاية

ومنهم ولداه أحمد ومصطفى فأنهما تقلدا إفتاء الشافعية ونيابة الشرع على المذهب الشافعي، ويبدو أن الاحترام الكبير الذي حظي به الشيخ أبو السعود في إسطنبول كان سبباً لتعيين حفيده محمد تاج الدين بن مصطفى نقيباً على إشراف القدس في سنة 1228هـ/1813م، وفي العهود التالية تولى أفراد من هذه الأسرة مهام تدريسية في المدارس والمساجد فضلاً عن إقامة حلقات الذكر في زوايا المدينة[1]. ويظهر أنه كان شاباً حينما قام برحلته هذه، وأن أمه كانت يومذاك على قيد الحياة، لأنه استأذنها للقيام بالرحلة، ولكنه لم يُشر إلى أبيه مطلقاً مما دَلَّ على أنه كان متوفياً. أما أخوته فقد ذكر منهم الشيخ حامد، ونعمان، ومن أعمامه الشيخ محمد أبو السعود، وذكر أولاد عم له هم خليل أفندي وأحمد أفندي وعلي أفندي. ولا توضح الرحلة شيئاً عن سيرته الشخصية، إلاّ أنه يقطن مدينة نابلس مع أمه في وقت قيامه بالرحلة، بينما كانت اسرته، ومنهم عمه وأخوه، مستقرة في موطنها القدس. ومن ناحية أخرى فإنه كان شاعراً لأنه سجل فيها نماذج مما كان ينظمه من الشعر في مختلف المناسبات، وشعره على أية حال ضعيف، وفيه من الخلل في الوزن الكثير، كما أن نثره نفسه لا يخلو من ركّة أحياناً، أو نزول إلى العامية كما سنرى، ولم نقف على تاريخ وفاته بسبب أن لم يترجم له أحد[2].

الرحلة

ذكر المؤلف سبب قيامه برحلته، وهو زيارته لضريح جده الأكبر محمد أبي السعود في استانبول، والسبب كما يبدو غير مقنع، فهل يمكن أن نتصور أن يقضي شاب شهرين كاملين في سفر مستمر، مع ما يكتنف ذلك من متاعب وأخطار، ليزور قبر جده، مهما بلغ حبه لذلك الجد، والأقرب إلى التصور أنه قصد المدينة

للقاعدة (القادم يزار) عزم السلطان محمود بعد يومين على الزيارة، ثم عدل لأن الشيخ كان مغمى عليه، وأحضر في اليوم الثاني لسراي السلطان ثم أعيد لداره لمرضه، ومات الشيخ أبو السعود في تلك السنة [يقصد سنة 1228هـ] ودفن في تربة أبي أيوب الأنصاري». تاريخ جودت ج10 ص123 نقلا عن الدباغ: بلادنا فلسطين ج10 ق2 ص356.

(1) موقع القدس الآن وموقع هوية ومواقع أخرى.

(2) أشار الدباغ إلى اسمه (عبد القادر أبو السعود المقدسي) فحسب ضمن عدد من أعلام بيت المقدس، ولم يزد على ذلك شيئاً. كتابه: بلادنا فلسطين ج10 ق2 ص358.

طلباً لوظيفة، فهذا كان السبب في زيارة أمثاله لها في ذلك العصر، لا سيما وأن لجده معارف في العاصمة يمكن أن يكونوا مفيدين في تحقيق مثل ذلك الطلب، وقد سبق أن تعين ابن عم له، هو محمد تاج الدين، في منصب قاضي القدس.

وعلى الرغم من حرص الرحالة على ذكر تواريخ الرحلة بالأيام والشهور، إلا أنه فاته أن يذكر تاريخ السنة، ومن ثم لم يعد ممكناً معرفة زمن قيامه بها على وجه التحديد، على أنه يمكن التوصل إلى ذلك على سبيل التقريب، فهو حين أشار إلى السلطان محمود الثاني قال« رحمة الله عليه»، وقد توفي هذا السلطان في 19ربيع الآخر 1255هـ/ 2 تموز- يوليو 1839م، فيكون قد قام برحلته بعد هذا التاريخ حتماً، وكان قد شاهد قصراً بناه هذا السلطان في استانبول، وهذا القصر هو الذي أنشأ عنده السلطان عبد المجيد قصر دولمه بقجه سنة 1257هـ/ 1842، وإذ لم يذكر الأخير، فيكون ما شاهده قد سبق إنشائه في ذلك التاريخ، وعليه يمكننا القول أن قيامه برحلته كان في سنة 1256هـ أو 1257م/ 1840 أو 1841م في أكثر تقدير، ونحن نرجح التاريخ الأول لأنه ذكر أن مغادرته نابلس كانت في يوم الاثنين 6 جمادى الأولى، ويوافق هذا التاريخ من أيام الأسبوع – بحسب محول التواريخ لبرنامج كوكل- يوم الثلاثاء، ووجود اختلاف بمقدار يوم واحد أمر محتمل إلى حد كبير.

تناهى إلى سَمع عبد القادر أن عمه محمد قد غادر مدينة القدس متوجهاً إلى يافا في طريقه إلى استانبول، فأثار ذلك رغبته في السفر إليها صُحبة العم المذكور، فكان أن استأذن أمه في الالتحاق به، ثم غادر نابلس ليبدأ رحلة طويلة[1]، بعُرف تلك الأيام، قاصداً الحاضرة العثمانية. فقصد أولا الرَّملة، فيافا حيث التقى بعَمِّه، ومن هناك مضت قافلتهما عبر وادي عزون إلى جَلجُولية، ومنها إلى يافا، ومن هناك ركب البحر إلى أرسُوف ومنها إلى بيروت، حيث مكث ثمانية أيام، ثم ركب سفينة بخارية إلى احد موانئ قبرص الجنوبية، ومنه إلى ميناء علايا (العلائية) على الساحل الجنوبي للأناضول، ولبث في هذا المدينة الساحلية عشرة أيام، ومنها، في السفينة نفسها إلى أضاليا (أنطاليا) حيث لبث فيها أربعة أيام،

(1) وصف مفهرس دار الكتب المصرية موضوع الرحلة بأنها «رحلة من مصر إلى اسلامبول عن طريق الشام»، مع أنها تبدأ من نابلس وتنتهي باستانبول.

ومن هناك توجه براً، في قافلة صغيرة، إلى كوتاهية، مارّا ببلدات بُردل (بردر) والسندقلي وقرى أخرى، واستغرقت إقامته في كوتاهية أربعة ايام، ومنها إلى يني شهر، فأزنيق، وتقدم، صحبة قافلته، بمحاذاة الشاطئ الشمالي بحيرة ازنيق ماضين صعداً إلى بحر مرمرة، حيث عبروا البحر على ظهر سفينة هناك، ومضوا براً إلى مدينة، أو بلدة، تدعى كيبزه، ومنها اتجهوا إلى أسكدار، حيث زار قبر الجد أبو السعود، وهذا هدف الرحلة، وبعدها انطلق في استانبول يزور معالمها من الجوامع والقصور والأسواق والخانات، ويمضي في رحلة بحرية في بحر مرمرة يزور معالمها الأخرى. وهكذا فقد استغرقت الرحلة كلها شهرين كاملين، قضى منها 29 يوماً في الإقامة في المدن التي مرَّ بها، و14 يوماً في السفر بحراً، و17 يوما في السفر براً. ولم يذكر المؤلف مقدار المدة التي قضاها في استانبول، ولا طبيعة ما قام به من عمل، كما لم يتحدث عن طريق عودته إلى وطنه.

تضمنت الرحلة فوائد جمة، أبرزها أن المؤلف وصف فيها المدن والقصبات والقرى التي كان يمر بها، بما يمكن أن يمثل ملاحظات مهمة في مجال الجغرافية الحضرية، وذلك على النحو الآتي:

وصف المدن والقرى

تناول الرحالة الأحوال التي كانت عليها المدن والقرى يوم مر بها باشارات فيها نباهة ظاهرة، فقرية رفيدة الواقعة قرب نابلس، مثلا، «سكانها غالبهم نصارى»[1]، وقرية الفندق، «هي خربانة، وأهلُها قد خَرَجت منها من جَوْر الحكام»[2]، وقيسارية « هذه المدينة خربة، قد هدمها الملك صلاح الدين حين فتحها. وأهل يافه يأخذون منها الحجارة لبنائهم»[3]، أما أضالية فهي «في سفح جبل شاهق، ممتدة من أسفله إلى أعلاه، وجميع بيوتها من الخشب، وعليها ثلاثة أسوار من الحجر وخندقين، وأهلها أتراك، وهم أهل مروءة ودين وعقل، ولهم أطباع حسنة، فمنها أن أسواقهم خارج المدينة، وبيعهم وشراءهم كذلك، وإذا أتاهم

(1) الورقة 3أ.

(2) الورقة نفسها.

(3) الورقة 10ب.

غريب لا يمكنونه من الدخول إليها، بل لهم محلات معدة خارجها، وكذلك العسكر. ومنها أن القاضي والحاكم والمفتي لا يكونون إلاّ من أهلها خوفاً أن يوقع غيرهم الفساد في مدينتهم، ومنها أن الصبي من أهلها إذا بلغ الحلم ولم يزوجه والده لفقره مثلاً، يخرجونه منها إلى الخارج. وهي رخية يعيش فيها الفقير، فإن أقة اللحم بأربعين فضة، وفيها الليمون الحامض وغيره من الفواكه»[1]، فهذا الوصف تجاوز الجانب المادي للمدينة إلى وصف عادات أهلها وأخلاقهم أيضاً، بل وأسعار المواد التي تباع في سوقها، ومثل هذا ما نوَّه به في كلامه على مدينة البردر إذ قال « وهذه المدينة غزيرة المياه، كثيرة الفواكه، رخيصة الأسعار»[2]. ووصف نوعاً من القرى المتواضعة التي تسمى يُرُك فقال أن هذا الاسم يطلق على بيوت للتركمان «بعضها من القش، وبعضها من الشعر». ولم يقتصر على الوصف العام للمدن والقرى التي مر بها، وإنما تحدث عما تضمه من مرافق عمرانية، مثل:

أ- وصف المساجد

كان الرحالة – كما هو واضح تماماً- متديناً تقياً، ولذلك فإنه كان حريصاً على أداء فروض صلاته في كل أيام رحلته، مهما كانت الظروف الصعبة التي مرَّ بها أحياناً، كما كان حريصاً أيضاً على أن لا تفوته بركة الصلاة في مساجد المدن والقصبات والقرى حيثما مكنته الظروف من الإقامة فيها، وقد جاء وصفه لبعض هذه المساجد دقيقاً. من ذلك مثلاً كلامه على جامع الرملة الكبير إذ قال «وجدته جامعاً محكم البناء، وله صحن واسع، وفي وسط الصحن قبة شاهقة، وفيها قبر أحد أولياء الله.. وهو ثلاثة أكوار ممتدة من المغرب إلى المشرق، وأما الكور الأوسط فإنه أعلى من اللذين من جانبيه، والمنبر من الرخام، وهو مقابل للباب، وفوق الباب سُدّة المؤذنين»[3]. ولم يفته أن يقارن بينه وبين جامع آخر في مدينة نابلس، من حيث التصميم، فقال «وهذا الجامع يشبه جامع النصر الذي هو في مدينة نابلس في جميع بنائه وأكواره وإحكامه، لأنهما كانا كنيستين في زمن الإفرنج، ولما فتح المسلمون بلادنا عملوا غالب الكنائس جوامع». ومثل ذلك وصفه

(1) الورقة 36ب.

(2) الورقة 23أ.

(3) الورقة 6ب.

لجامع يافا بأنه «مربع الأركان، وعلى دائر الصحن أروقة من كل الجهات، وفي كل رواق من الجهة الغربية حجرة لطلبة العلم، وفي وسط الصحن مزولة تعرف منها الأوقات»[1]، بل أنه نصَّ على هوية مؤسسه، وما كان عليه قبل عمارته، فقال «وكان قد عمَّره وشيَّده محمد باشا أبو نبُوت، وكان قبل عمارته آل إلى الخراب، ولما عمَّره المذكور زاد في صحنه وأوقف عليه أوقافاً». كما أنه أورد قائمة بجوامع استانبول الكبيرة، ولم يصفها تفصيلاً، ربما بسبب كثرتها وشهرتها.

ب-وصف الأضرحة والمقامات

وكأكثر رحالي عصره، فإنه عُني بالإشارة إلى أضرحة الأولياء ومقامات الصالحين بوصفها معالم على طريق رحلته، من ذلك تنويهه بمقامي الخضر وأبي العباس قرب مدينة نابلس، وبالمقام المنسوب إلى الشيخ الجنيد في «جبل شاهق»[2] قربها أيضاً، ومقام للإمام علي رضي الله عنه قرب الرملة، وهو«محل فيه أبنية وقبب كثيرة»[3]، ومن تلك المقامات مقام علي بن عليل، و«هو على ساحل البحر في أرض أرسوف»[4]، وأشار إلى كراماته ، كما نوه بضريح أبي أيوب الأنصاري في اسكدار، حيث ضريح جده أبي السعود.

ج – وصف الجسور والقناطر

في الرحلة اشارات مهمة إلى بعض الجسور والقناطر التي لفتت نظر رحالتنا، من ذلك أنه وصف جسراً خشبياً يقوم على قناطر، في نواحي اسكدار، فجاء وصفه مستوعباً لموضوعه، تناول فيه مواد بنائه، وهوية منشئه، وتصميمه العام، وما إلى ذلك. قال«ولم نزل حتى وصلنا إلى جسر من الخشب المقير الممتد على البحر من الشرق إلى الغرب، ومسافة امتداده نحو عشر دقائق، وهو في غاية من الإتقان، والذي أمر باقامته الملك الأعظم والخاقان المعظم المكرم السلطان محمود رحمه الله رحمة واسعة، وهو من العجائب العجيبة، والخوارق الغريبة، لم يسبق

(1) الورقة 9أ.

(2) الورقة 3أ.

(3) الورقة 10أ.

(4) الورقة 10أ.

على أحد من الملوك الذين قبله، وله قنطرتين، واحدة تذهب منها القوايق (ضرب من الزوارق)، وواحدة تأتي منها، خوفاً أن تتلاحم مع بعضها فيحصل الغرق، وفي كل قنطرة أوضتين (أي حجرتين)، واحدة على اليمين وواحدة على اليسار، وفيها إناس من العسكر يحرسون خوفاً من الحريق، وهو رحمة للفقير والغني»[1]. ووصف جسراً قرب الدَروَند بأنه « جسر منيع نحو عشر قناطر، والماء يجري من بعض القناطر، وهذا النهر كأنه النيل»[2].

د- وصف خانات المسافرين

أشار إلى عدد من الخانات التي نزل فيها في طريق رحلته هذه، ووصف بعضها وصفاً جيداً فقال عن خان قديم قرب جلجولية أنه «كبير محكم البناء قديم، من آثار الإفرنج، والظاهر أنه كان كنيسة»[3]، فهذه الملاحظة ذكية كما ترى وتدل على فهم لا بأس به لتطور العمارة في هذه البلاد. كما نوه بخانات أخرى نزل بها مثل خان اللد، وخان السندقلي، وخان يني شهر.

هـ- وصف القصور

أثارت القصور الفخمة التي شاهدها في استانبول دهشته، فتحدث عن القصور التي على ساحل مضيق البوسفور، وما أتفق عليها من أموال، فقال أن الناس «يزخرفونها بأنواع الزينة، ويذهبون عليها الأموال الجسيمة بحيث تبلغ كلفة الواحد خمسمائة ألف غرش»[4] هذا مع أنها لا تسكن إلا في الصيف فحسب، وأعد قائمة بأسماء سرايات استانبول الكبيرة وضواحيها ، منها «سراي هَمَيون، وتسمى يَني سَراية، وأسكي سراية أي السراية القديمة، و سراية أسماء سلطان أخت السلطان محمود، وسراية بشكطاش، وسراي شراق يالسي، التي بناها السلطان محمود، وأنفق عليها نحو خمسة وستين ألف ألف غرش، ومات قبل أن يسكنها» ،اي بيلر بيه وهي للسلطان محمود أيضاً. ويقول أخيراً «وأما القصورالتي

(1) الورقة 30ب.
(2) الورقة 24أ.
(3) الورقة 5أ.
(4) الورقة 42أ.

في المحلات المنزهات داخلاً وخارجاً فلا أعلم لها عدداً لكثرتها»[1]. ووصف موكب خروج السلطان عبد المجيد لصلاة العيد وصفاً جيداً، كما تحدث عن زيارته لآثار النبوة المحفوظة في بعض القصور السلطانية.

و - معالم أخرى

ولا تخلو الرحلة من اشارات مهمة إلى معالم مختلفة أخرى، منها مثلا وصفه لدير اندريه (دير القديس اندرياس) في قبرس، وقد اضطر ورفاقه في الرحلة إلى النزول فيه برهة من الوقت. كما أشار إلى قلعة قديمة على قمة جبل مَرَّ به قرب نابلس، فلاحظ أنها «كانت قلعة حصينة قد تهدمت من كثرة فتن الفلاحين مع أهالي مدينة نابلس»[2]. ووصف لقرائه أحوال (الكرنتينة) وهي دور الحجر الصحي التي مر بها في الموانئ المختلفة، لا سيما في بيروت، وقبرس، والعلايا، وأضاليا، وبازرجك، وقرطل، وهي أحوال لم تكن إلا بائسة، وقد أعلن هو كرهه لها وعدَّها لا تتوافق مع روح الايمان بالقضاء كما كان يفهمه معاصروه. وفي الواقع فإن هذه المؤسسات لم يكن قد مضى على تأسيسها إلا مدة قليلة، وكانت ظروف عملها والنقص في خدماتها سبباً في ضيق المسافرين الذين كانوا يضطرون إلى الاحتجاز فيها مدة قد تصل إلى أسبوعين أو يزيد.

وصف البيئة الطبيعية

اهتم الرحالة بالبيئة الطبيعية التي كان يمر بها في أثناء رحلته، من المروج والبساتين والينابيع والأنهار والبحار، وما كان تنتجه تلك البيئة من ثمار متنوعة، وأكثر هذه الملاحظات يدخل في مجال الجغرافية الاقتصادية، مثال ذلك اشارته إلى البساتين التي كانت تجاور قرية رفيدة[3]، ووصفه لبيئة بلدة الفندق إذ قال أنه وجدها «أرضاً مُخضرَّة النبات، كثيرة الأعشاب»، وأشاد بانتاج بساتين غزة من التفاح الفاخر قائلا «يسمى جنس هذا التفاح بياري، وهو مشهور في جميع

(1) الورقة 45أ.

(2) الورقة 3أ.

(3) الورقة نفسها.

أوصافه طعماً ولوناً ورائحة، ولا يصير هذا الجنس إلاّ في هذه المدينة المذكورة»[1]. وأشاد ببساتين أضالية وكونها تحفل «بأنواع الفواكه» الرخيصة، ومنها التفاح، ووصف واد خصيب قرب كوتاهية بأنه «واد ظريف لطيف كثير الأشجار، وفيه نهر كبير يدير أرحية نحو العشرة، وماؤه عذب»[2].

كما أنه وصف السفر في البحر، ودواره، وعواصفه، وقطاع الطرق فيه من القراصنة، وما إلى ذلك من شؤون.

والرحلة بعد هذا تقدم تعبر عن روح عصرها تماماً، فهي تتضمن ألفاظاً من حضارة البلاد التي جرت فيها، من ملبوس ومأكول وسفن وزوارق وعادات اجتماعية وغير ذلك.

وأسلوب الرحالة في كتابة وقائع رحلته اسلوب عادي تماماً، فلا سجع، ولا محسنات بديعية، بل هو يميل إلى استعمال تعابير وألفاظ عامية، وفي تقديرنا فإن هذا الأمر زاد من أهمية الرحلة، لأنه ابتعد بها عن التكلف البلاغي الذي اعتاد عليه الرحّالون السابقون في وصف مشاهداتهم، والذي كان يبخس النص شيئاً من صدقه ودقته وعفويته، كما أن استعماله بعض المصطلحات العامية سجل للقارئ لغة ذلك العصر، على أنه أورد أشعاراً كثيرة من نظمه، نظمها توافقاً مع مناسبات رحلته، على أن هذه الأشعار تميل إلى الضعف الشديد، وفيها من الركة والاخلال بالوزن ما يمكن أن يلحظه القارئ بسهولة، لكنه أورد أيضا أبيات لشعراء آخرين، ومنها ما اقتبسه من كتاب ألف ليلة وليلة غير منسوب لأحد.

من الرحلة نسخة يتيمة بخط مؤلفها، وهو خط عادي لا يلتزم بقواعد الخط، والنسخة غير مؤرخة، وقد سقطت الورقة الأولى منها، وتقع في 46 ورقة، في كل صفحة منها 17 سطراً، وهي محفوظة في دار الكتب المصرية في القاهرة تحت العدد 755.

خطتنا في التحقيق

ونظراً لأهمية هذه الرحلة، وجدة معلوماتها، فقد أقدمنا على تحقيقها ملتزمين بالخطوات الآتية:

---

(1) الورقة 5أ.

(2) الورقة 22ب.

1- حافظنا على النص كما كتبه مؤلفه، باستثناء إصلاح بعض الأخطاء النحوية، مما نبَّهنا إليه في الهامش، وإصلاح أخطاء إملائية متكررة، مثل كتابته الألف المقصورة ياء، وقلة تمييزه بين التاء الممدودة والتاء المربوطة، وبين الأخيرة والهاء، واغفاله كتابة الهمزة في أكثر الأحيان.

2- لما لم كانت مخطوطة الرحلة خالية من عنوان، فقد وضعنا لها عنواناً موافقاً لموضوعها.

3- أضفنا عنونات جانبية استخرجناها من حديثه عن المعالم التي مر بها، وحصرناها بين معقوفات.

4- خَرَّجنا أسماء الشعراء اللذين أثبت المؤلف أشعارهم من أبيات أوردها في مناسبات مختلفة، إلا ما لم يكن منسوباً لأحد.

5- تابعنا الرحالة في مراحل رحلته، فعَرَّفنا بالمدن والقصبات والقرى والموانئ التي مر بها، وأثبتنا ما تحَوَّل من أسمائها في الوقت الحاضر، لا سيما في بلاد الأناضول. وتعيين أماكنها في الوقت الحاضر ما أمكن ذلك

6- في الرحلة إشارات عديدة لأشخاص التقى بهم صاحبها، وأكثر هؤلاء لم يُترجِم لهم أحد، فحاولنا أن نُعرِّف بهم، أو بأُسرهم في الأقل، ما استطعنا إلى ذلك سبيلا.

7- في الرحلة أيضاً ألفاظ عامية، ومنها ألفاظ تركية وأوربية، فشرحنا معناها في مواضعه.

8- أضفنا إلى الرحلة صور للمعالم التي مر بها الرحالة، وحرصنا أن تكون قريبة من عهد المؤلف زمناً، لتساعد القارئ على تصور ما كان قائماً في عهده[1].

وأخيراً، فهذه نص جديد[1] لم يُعرف من قبل من أدب الرحلات في العصر العثماني، نقدمه للقراء المهتمين بهذا النوع من الأدب، فهو يقدم شهادة عيان حقيقية عن مجريات الحياة في بلادنا إبان ذلك العصر.

---

(1) الصور المذيرة شروحها بعلامة * مأخوذة من كتاب سر تشارلز ويلسون: لوحات من القرن التاسع عشر، لبنان، فلسطين، سيناء، بيروت 1995.

والله من وراء القصد .

عماد عبد السلام رؤوف

إربل 2012/1/12

(1) سبق أن نشرنا من أدب الرحلات، الرحلات الآتية: حسن حسني ورحلته إلى ديار بكر، مجلة بين النهرين ،الموصل العددان 6 و7، 1976، ورحلة اللحافي البغدادي إلى القسطنطينية. مجلة المورد، بغداد، العدد4، المجلد 18، 1989، رحلة طه الباليساني الكردي في العراق والأناضول وبلاد والشام ومصر والجزيرة العربية، الطبعة 1، بغداد، مديرية الثقافة الكردية، 1999، وط 2، أربيل، مؤسسة موكرياني 2007، رحلة نصوح أفندي المطراقي زاده، ابو ظبي، المجمع الثقافي، 2004، ورحلة القائد العثماني سيدي علي التركي، بيروت، الدار العربية للموسوعات، 2009، وعبد الله السويدي: النفحة المسكية في الرحلة المكية، في العراق وبلاد الشام والحجاز، ط1، أبو ظبي، المجمع الثقافي، 2001، وط2، بيروت 2011، وفضل الله المحبي: الرحلتان الرومية والمصرية، بيروت، الدار العربية للموسوعات 2012.

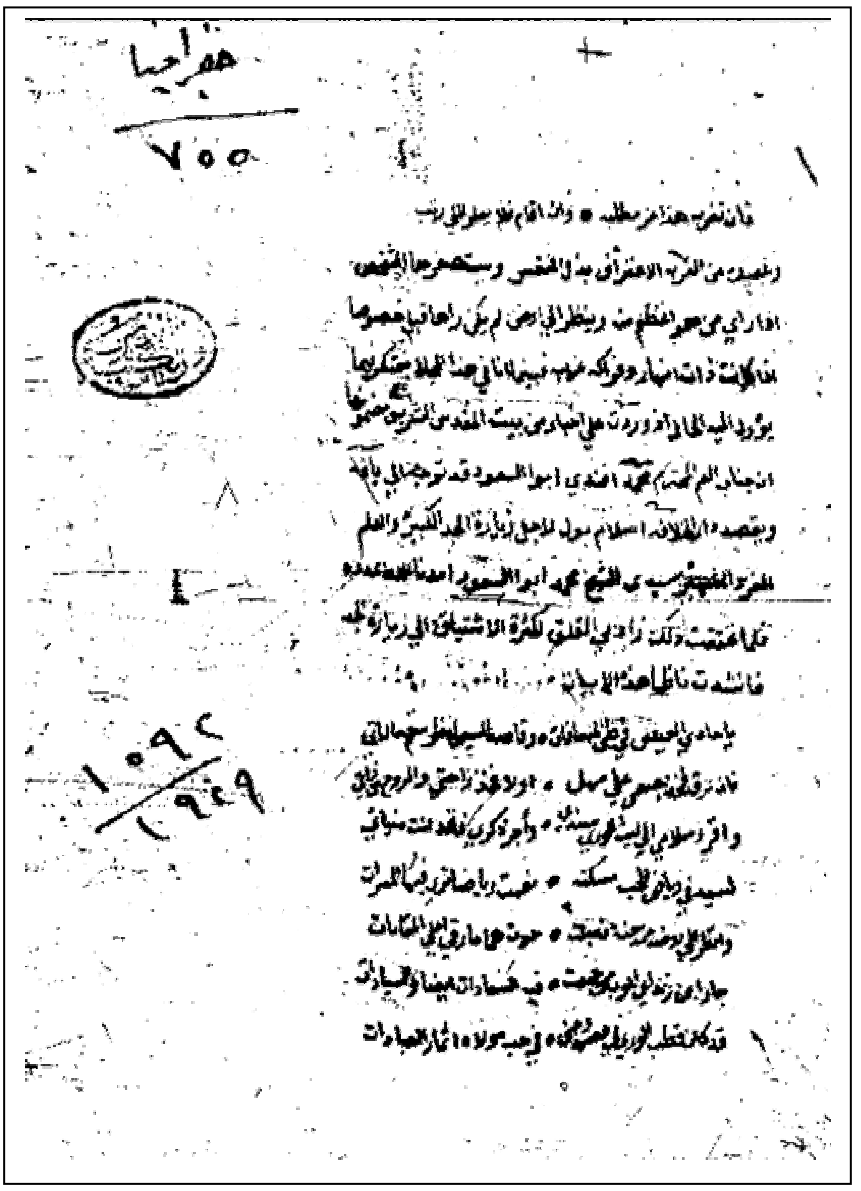

الورقة الأولى من المخطوط

النص- التحقيق

فإن تغرَّب هذا عزَّ مَطلَبه وإن أقام فلا يعلو إلى رُتبِ[1]

[العزم على السفر]

[و1أ] ويكفيك من الغُرْبة الاعتراف بذُل النفس، ويستصغرها الشخص إذا رأى من أعظم منه، وينظر إلى أرض لم يكن رآها قبل، خصوصاً إن كانت ذات أنهار وفواكه غريبة، فبينما أنا في هذا المجال أتفكر فيما يؤول إليه الحال، إذ وردَت عليّ أخبار من بيت المقدس الشريف مضمونها إن جناب العم المحترم محمد أفندي أبو السعود قد توجه إلى يافه[2]، ويقصد دار الخلافة، إسلام بول، لأجل زيارة الجد الأكبر، والعلم المُفرَد الشهير، سيدي الشيخ محمد أبو السعود، أمدنا الله بمدده، فلما تحققت ذلك بي القلق لكثرة الاشتياق إلى زيارة الجد، فأنشدت ناظماً هذه الأبيات:

---

(1) بهذا البيت يبدأ المخطوط، فقد سقطت الورقة الأولى منه، وهو للإمام الشافعي، إلا أن عجزه كالآتي: وإن تغرب ذلك عز كالذهب

(2) يافا مدينة عربية، على ساحل البحر المتوسط، تبعد عن مدينة القدس بنحو 60 كم، أسسها الكنعانيون في الألف الرابع قبل الميلاد، وأسموها (ياپي) أي الجميلة، ثم تداولتها أيدي المحتلين، فضمها الرومان إلى دولتهم في المدة من 63ق.م إلى 324م، وأعقبهم البيزنطيون حتى سنة 15هـ/636هـ، وتدفقت عليها خلال هذه العصور الهجرات العربية المستمرة، ودخلها المسلمون في التاريخ الأخير لتصبح احدى أهم مدن فلسطين الادارية والاقتصادية نظراً لأهمية موقعها التجاري والبحري، احتلها الصليبيون في أثناء الحروب الصليبية سنة 1099م، واستعادها السلطان صلاح الدين الأيوبي لكنها عادت إلى الصليبيين بعد سنة واحدة، وأخرجهم منها الملك نور الدين أبو بكر بن أيوب، سيطر عليها العثمانيون في سنة 922هـ/1517م، ولبثت جزءاً من الدولة العثمانية حتى احتلها نابليون لمدة قصيرة سنة 1799م ونكل بأهلها، ثم عادت إلى العثمانيين لتبقى بأيديهم حتى أواخرالحرب العالمية الأولى، واحتلتها المنظمات الصهيونية سنة 1948م وهجرها معظم أهلها، ثم ضمتها السلطة الصهيونية سنة 1950 إلى بلدية مدينة تل أبيب في وحدة ادارية واحدة. تميزت بنشاطاتها الثقافية لا سيما في القرن التاسع عشر، وفيها معالم تراثية اسلامية مهمة، منها جامعها الكبير، واشتهرت بكثرة بساتين البرتقال والفواكه حولها. ابن عبد الحق: مراصد الإطلاع ص1471 ومصطفى مراد الدباغ: بلادنا فلسطين، بيروت 1972 والموسوعة الفلسطينية، ق2 مج1-2، بيروت 1999 وسر شارلز ولسون: لوحات من القرن التاسع عشر، لبنان وفلسطين وسيناء، ترجمة محمد شيا، بيروت 1995م، ص129-141.

يـا حـاديَ العِيس في طـيِّ المسافات وقاصدَ السَّيرِ انظر سقم حالاتي
فـإن تـرُق فخـذ بـضعي علـى مَهَـلٍ أو لا فخُذ راحتي والروح من ذاتي
واقرئ سلامي إلى ليث الورى سَنَدي وأجْـرِ ذِكـري فقـد دَنَـت منيّـاتي
لـسيدٍ في ريـاض الحُـب مـسكنه نعمت رياضاً ترى فيه كل المسرّات

وانظـر إلى روضـةٍ مـن جنَّـة نُـصبت حَـوَت عمـا رقـى أعلـى المقامـات
جار ابن زيد أبي أيوب[1] من جمعت فيـه الـسماوات أيـضاً والـسيادات
قد كان قطب الورى في غصن وجنى في حب مولاه أثمار العبادات [و1ب]
فهو الذي قد رقى حُجُباً وفاز بها أبـو الـسعود وجـد للـسعادات
قد هام في العشق حتى قال معترفاً لعلمـه أنـه فـوق المقامـات
مـن يـدعي خـيراً في عـصرنا فلقـد أتـى بـشيء دنـي في العجـز غايـات

فعند ذلك استخرت الله على أن أسافر إلى يافه، واجتمع بجناب الآفندي الهمام، لعله أن يصحبني بخدمته، فذهبت إلى الوالدة لأستأذنها، فأنشدتها مستأذناً، ناظماً هذه الأبيات:

يـا جعفريـة أصـلٍ انـني دَنِـف جودي بإذن إلى من يبتغي سفرا
قالـت: لهـذا فـاخبرني، فقلـت لهـا : أمنـيتي او لرزقـي اولهـا عـسرا[2]
مـا زلـت حتـى اتـاني الاذن قائلـة: أودعتـك الله كُـن في الـدهر

وما زلتُ معها ألاطفها حتى طاب منها الخاطر، وسَمَحت بالاذن، فقبّلت يدها، وسِرتُ لأنظر قافلة أسافر معها، فما وجدت أحداً، فانتظرت إلى ثاني يوم، وكان قد حضر أخي الشيخ حامد إلى مدينة نابلس[3] يريد صلة الرَّحم وزيارة والدته ويأخذ

(1) سيذكر المؤلف أن قبر أبي السعود كان مجاوراً لقبر أبي أيوب الأنصاري.
(2) كذا في الأصل.
(3) هي موطن المؤلف، ومنها منطلقه في هذه الرحلة، ونابلس احدى أهم مدن فلسطين، أسسها العرب الكنعانيون في حدود 3600 ق.م، وسموها (شكيم) أي المرتفع، وذلك نظراً لموقعها

بعض لوازم، فسألته عن جناب الأفندي، فقال: أنه في همة السفر، ويوم الإثنين المبارك يريد التوجه إلى يافه، وكان اليوم الذي صار فيه هذا الكلام يوم الأحد.

ثم أن الأخ المذكور قضى مصالحه وأراد التوجه إلى القدس فرحت لأودِّعُه، وأنا ألهج بهذين البيتين لابن الوردي رضي الله عنه[1] [و2 أ]:

من كان مرتحلا بقلب محبه يوماً فإنك راحل بجميعي
وأنا الذي تركك الوطن تعمداً من ذا يطيق حرارة التوديع

ولما رجعت من الوداع وجدت قافلة تزمع السفر إلى الرَّملة، فاستأجرت معهم، وصار الوعد أنهم يرحلون يوم الأربعاء[2]، ثم شرعت في أهبة السفر، وأخذت بعض لوازم. ولما كان يوم الثلاثاء حضر عندي واحد من القافلة، وأخبرني أن الرحيل يكون في الليل، وقال: أنت في هذه الليلة تأتي إلى عندنا لأجل ذلك.

لموقعها على تل عال هناك (يسمى اليوم تل بلاطة)، ثم تعاقبت عليها الأقوام الغازية، فسقطت بيد الرومان سنة 63 ق.م، وأسسوا بقربها مدينة جديدة سموها (نيابولس) أي الجديدة، ومنها تحرف الاسم إلى (نابلس)، وفي العصر البيزنطي (323–638م) أصبحت مقراً دينياً مسيحياً، ثم فتحها المسلمون، بقيادة عمرو بن العاص سنة 16هـ/ 638م ولبثت جزءً من الدولة الإسلامية حتى احتلها الصليبيون سنة 492هـ/ 1099م لكن السلطان صلاح الدين استعادها منهم سنة 582هـ/1187م، فازدهرت في العهود التالية، وصارت مركزاً تجاريا وثقافياً بارزاً، ونوه ابن عبد الحق بنظافتها وكثرة مياهها وسعة (كورتها) أي منطقتها (مراصد الإطلاع ص1347) وضمها العثمانيون إلى دولتهم سنة 922هـ/1517م، فحققت ازدهارا بمن استقر بها من العلماء والأدباء، ومنهم أسرة المؤلف، ونوه بها الرحالة التركي أوليا جلبي في القرن 11هـ/17م بقوله « ونابلس مدينة جميلة تقع في بطحاء بين جبلين ، ممتدة من الشرق الى الغرب ، وتتألف من ثمانية عشر حياً. وبعض دورها الشبيهة بالقلاع جيدة البناء ومجصصة" ثم وصف السائح بعض مساجد المدينة وبخاصة جامعها الكبيروعدد مدارسها وذكر أن فيها سبع زوايا وحمامين عموميين، وكان زلزالاً مروعاً قد ضرب المدينة سنة 1583هـ/ 1838م أي قبيل أن يشرع برحلته، وخرب جامعها الكبير، وسيشير المؤلف إلى هذا الجامع فيما يأتي من رحلته، ولم يشر إلى خرابه عهد ذاك. وينظر موقع مدينة نابلس الألكترونية و *abedkhattar.com*.

(1) هو زين الدين أبو حفص عمر بن مظفر المعري البكري المعروف بابن الوردي، ولد سنة 691هـ/1292م وتوفي سنة 749هـ/ 1292–1349م، وكان شاعراً أديباً عالماً بالعربية ومؤرخاً.

(2) الموافق 30 كانون الأول سنة 1840م.

سوق قديم في نابلس

جامع نابلس

وكانت القافلة نازلة في محل خارج المدينة يسمى الشُوَيْطَرة[1]، ولما صار وقت الغروب صليت المغرب، وذهبت إلى الوالدة لأجل الوداع، فاجتمعت مع الوالدة، ولسان حالها يلهج بهذه الأبيات:

إن الوداع عذابٌ جاء من سقرٍ ... له لهيبٌ فيا ليت الوداع فني
ناديت يا وداع الشؤم أخبرني ... أبعدك اليوم أنظر من يودعني

لا تركُنَن إلى الفرا ... ق فإنه مُر المذاق
الشمس عند غروبها ... تصفرُ من ألم الفراق
وكفاك عند شروقها ... تبيض من فرح التلاق

وجلست عندها إلى وقت العشا، وهي لا تفتر عن البكا، فأنشدت ناظماً هذين البيتين:

ألا كُفّي البُكاء فإن قلبي ... تقطع بالتلهف والبكاء
[و2ب]
فمولانا الكفيل على كلَيْنا ... إليه تضُرُعي وله اشتكائي

فقبلت يديها ودعت لي بالرضا والعَوْن، ثم انصرفت إلى وداع الخال، وودعته، وذهبت أقصد القافلة بعد أن حمل خادم الخال حوائجي اللازمة إلى السفر، وبعضاً من الزاد، ولساني يلهج بهذين البيتين الذين أجاد بهما الشاعر حيث قال[2]:

وما أدري إذ يمَّمتُ أرضاً ... أريد الخير أيهما يَليني
هل الخير الذي أنا أبتغيه ... أم الشر الذي هو يبتغيني

[مغادرة نابلس]

وتوجهنا نريد الخروج من الباب الذي فيه مقام سيد الخضر عليه السلام، ولما وصلنا إلى مقامه المأنوس، وقفنا هناك، وقرأنا الفاتحة، وتوسلنا بسيد

(1) حي في أقصى غرب البلدة القديمة ويمتد جزء منه إلى خارج حدودها.
(2) البيتان للمنقب العبدي، من شعراء ربيعة.

الكائنات وصاحب المعجزات، وبسيدنا أبي العباس الذي هو حي ما مات، أن يسترنا في سفرنا بالذهاب والإياب، وأنشدت ناظماً هذين البيتين:

أبا العباس أرجو منك عوناً ... لمن يبغي ابتداءً للبعاد
فمن ما الحياة شربت صرفاً ... وما الحزن ضاق به فؤادي

ثم سرنا حتى وصلنا القافلة فوجدناهم على نية الرحيل، ففرشت سجادة كانت معي فصليت العشا وأردت النوم فلم أستطع، وأخذتني الوحشة فذكرت الله وأثنيت عليه، وما زلت على هذه الحالة [و3أ] إلى أن انقضى الليل فنادوا بالرحيل.

[رفيدة]

وسرنا متوكلين على الله، فما كان إلا قليل حتى مررنا على عين ماء بجانب قرية تسمى رفيدة[1]، وسكانها غالبهم نصارى، وهذه العين تسقي بساتين هذه القرية، فنزلت عليها وتوضأت منها لأن الوضوء سلاح المؤمن، ثم أنشدت ناظماً هذه الأبيات:

نزلنا على عين تفيض على الثرى[2] ... وتسقي بستاناً هو أطيب أنهار[3]
توضأت منها ثم قلت مخاطباً ... لنفسي أتبغي الماء والماء تختاري
فعيناك تجري فاقنعي فتكلمت ... صحيح ولكن ماؤها أحمر جاري
وفي مذهبي التعبير في الوصف مذهبٌ ... طهارتها قد صح هذا ... ار[4]

[مقام الجُنيد]

ثم ركبت وسرنا حتى أشرف علينا مقام سيدنا الشيخ الجُنيد – رضي الله عنه –

---

(1) قرية تقع غرب مدينة نابلس، وتعد الآن من أحياء مدينة نابلس، تشتهر هذه القرية بأراضيها الزراعية، ووفرة ينابيعها، وقد كانت في السابق قرية رومانية صغيرة محاطة بسور قديم وله بوابة ومدخل رئيس، ثم توسعت وازداد عدد سكانها، وأصبحت اليوم مزدهرة بالعمران، ومن معالمها الشهيرة اليوم جامعة النجاح الفلسطينية.

(2) في الأصل: تفوض.

(3) في الأصل: بستان.

(4) غير واضحة في الصل.

من جبل شاهق ونحن من أسفله[1]، وما أدري أهو الشيخ الجنيد - رضي الله عنه- شيخ الطائفتين أبو القاسم أو غيره.

وعلى رأس هذا الجبل كانت قلعة حصينة قد تهدمت من كثرة فتن الفلاحين مع أهالي مدينة نابلس، وبقي آثارها، فوقفنا هناك وقرأنا الفاتحة، ودعونا الله بما تيسر، فأنشدت ناظماً هذه الأبيات:

يا أيها الكامل الراقي بأوصافه سماء فضل إلى المولى بإسعافه

[و3ب]

أنت الجُنيد الذي أدناك خالقنا وقد حَباكَ علاً من فيض ألطافه

عليكَ في هذه الدنيا شير لنا[2] بأن عليك في الأخرى بأضعافه

[جيت]

ثم سرنا تحت أنظاره حتى طلع الفجر، فنزلت وصليت الفجر، وسرنا، وكان ذلك اليوم يوم الأربعاء، ولم نزل سائرين حتى وصلنا إلى قرية على رأس جبل، فمررنا من تحتها. وتسمى هذه القرية قرية جيت[3].

[حجة]

وسرنا حتى بانت لنا قرية حجة على بعد، وفيها منارة عالية[1].

---

(1) مقام الجنيد مقام مشهور، يقع في قرية الجنيد في مكان مرتفع، وصاحب هذا المقام هو الإمام أبو القاسم الجنيد، كما دلّت عليه الكتابة الموسومة على بابه، وهو أبو القاسم الجنيد ابن محمد الخراز الزاهد المشهور من نهاوند، ومولده ومنشؤه العراق وفلسطين، إمام الطائفتين الصوفيّة والفقهاء وكان شيخ وقته وفريد عصره، وكلامه في الحقيقة مشهور مدون. عاش الجنيد في بغداد ودفن في أحدى مقابرها، وتسمى الشونيزي، في الجانب الغربي منها، وتعرف اليوم بمقبرة الشيخ جنيد نسبة إليه، وقبره شاخص، وعنده مسجد عامر.وكانت وفاته سنة 297هـ/909 م.

(2) كذا في الأصل.

(3) قرية تبعد عن نابلس بنحو 12 كم من الجنوب الغربي، على السفوح الغربية من جبل النار ، وهي كلمة كنعانية بمعنى (معصرة). تقوم على بقعة (جت كرمل) الكنعانية وذكرت في العهد الروماني باسم جتاء.

حجة ومنارتها

مبنى قديم في حجة

---

(1) حَجّ قرية تقع على بعد 18 كم من نابلس غربا، بينها وبين قلقيلية، وكانت تعد من أعمال الأخيرة، واسم حجة آرامي، بمعنى السوق والمجتمع.

[الفندق]

ولم نزل نجد السير حتى وصلنا إلى قرية تسمى الفُندُق[1]، وهي خربانة، وأهلُها قد خَرَجت منها من جَوْر الحكام، ولها جامع لطيف قد آل إلى الخراب، فمررنا من وسط تلك القرية، وسرنا نحو ساعة عنها، فوجدنا أرضاً مخضرة النبات، كثيرة الأعشاب، فنزلنا هناك لأجل أن نرتاح وترعى الدواب ما قسم الله تعالى، فطلبَت نفسي النوم فنمت نحو ساعتين، فلما انتبهت وجدت الغُسل قد وَجَب عليّ، فقلت: لا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم. وكان معنا ابريق من الفخّار، فالتفت إليه لا نظره فوجدته مكسوراً، فضاق بي الحال، وأنشدت ناظماً هذين البيتين: [و4أ]

نزلتُ في منزل أبغي المنام به ... لأنه راحة ما مثله صدرا

لما انتبهت وجدت الغسل مفترضاً ... على جميعي وذا الإبريق قد كُسرا

ثم سألت واحداً من أصحاب القافلة عن الماء، فأشار لي بيده وقال لي: هناك البئر، فذهبت إلى البئر فوجدتها بئر كبيرة وعميقة وهي منعطفة عن الطريق، فرجعت إلى الذي دلّني عليها، وقلت له: أتعرف لنا من يأتينا بإبريق أو شيء نملأ به، فقال لي: هنا قرية قريبة فأعطني الفلوس حتى أحضر لك ما تريد، فدفعت له ما تيَّسر، فغاب عني مقدار ساعة وحضر لنا بإبريق، فأخذته وأخذت حَبْلاً وذهبت إلى البئر وسلخت[2] ما عليَّ من الثياب، وصرت أنضح من البئر وأغتسل إلى أن كملت الطهارة، فلبست ثيابي، وحمدتُ الله على اليُسر بعد العُسر لأنها كانت مكيدة من إبليس اللعين، فلعنة الله عليه، ثم لعنة الله عليه، على طول الزمان، ثم أنشدت ناظماً هذين البيتين:

خزاك الله يا إبليسَ دهراً ... طول عمري قدر لعنتك

نصبت مكايداً لي تقهرني ... فمت كمدا فها أنا قد قهرتك

ثم استقمنا في ذلك المنزل إلى أن صار وقت الظهر، فصلينا [و4ب] الظهر، ودعونا الله بما تيسر. ثم ركبنا وسرنا وقد حصلت لنا الراحة الكاملة.

---

(1) قرية قريبة من حجة، من أعمال نابلس.

(2) كذا في الأصل، ويمكن أن تكون: شلحت.

[وادي عزون]

ولم نَزَل سائرين حتى أقبلنا على وادٍ طويل كثيرالمعاطف يُسمّى وادي عَزُّون[1]، فمشينا فيه نحو رُبعه، وأتينا على بئر ماء، فنزلنا عليه ساعة زمانية وشربنا منه، فإذا ماؤه عذبٌ باردٌ لطيف، ثم قلت ناظماً هذين البيتين:

أسقني شَربة ماءِ بارد تطفي اللهيب
إن نارَ القلب قادت وأنا الصَّب الكئيب

ثم سرنا في معاطف هذا الوادي، وكلما خلصنا من عطفة تظهر لنا عطفة أخرى غيرها أو عطفتين، فحصل لي سأم منه، ولما طال هذا الحال أنشدت ناظماً هذين البيتين:

وادٍ طويلٌ كليلٌ طال موعده على جريح وسُمي واد عَزُّون
لكن معاطفه زادت على مائةٍ ناديتُ في طوله :عَزُّوني عزُّوني

ثم سرنا في ذلك الوادي نحو أربع ساعات، ولما خرجنا منه وجدتُ أرضاً سهلة واسعة كأنها البحر، والقرايا فيها كأنها السُّفن.

بلدة عزون

(1) واد بين نابلس ويافا، كان يمر فيه الطريق الواصل بين مدينتي نابلس وقلقيلية، على بعد ثلاثة وعشرين كيلو مترا جنوبي مدينة نابلس، وتسعة كيلو مترات شرقي مدينة قلقيلية، وفي العهد العثماني كان الطريق الذي يربط بين مدينتي نابلس ويافا يمر عبر وادي عزون. أسسها الكنعانيون، إلا أن البلدة الحالية جرى تأسيسها بعد معركة حطين عام 691هـ/ 1187م، وكان لأهلها دور محمود في التصدي لسرية فرنسية ارسلها نابليون في طريقه إلى عكا. كتاب (بلادنا فلسطين) لمصطفى الدباغ.

[جلجولية]

وسرنا في هذا السهل فرحين حتى وصلنا إلى قرية كبيرة يقال لها جُلجولية[1]، ونزلنا في محل خارج عن القرية وكان الوقت وقت الاصفرار، ثم ذهبت إلى بئر القرية، وتوضأت منها [و5أ] وصليت العصر، وجلسنا للراحة مما رأيناه من طول هذا الوادي فأنشدت ناظماً هذين البيتين:

رأيتُ حال الفتى في الدهر أجمعه مثل الذي فيه[2] في السهل والجبل
لا يُنظر اليُسر مجّاناً بلا تعب حتى يُرى العُسر فانظر صورة العَسَل

ثم سألنا مَن في القافلة حتى نرحَل من هنا، فقالوا: إن شاء الله في نصف الليل، وذلك خوفاً من الحر. ثم وجدتُ في القرية خان كبير محكم البناء قديم من آثار الإفرنج، والظاهر أنه كان كنيسة، ولما صار وقت الغروب أقمت الصلاة وصليت المغرب، ودعوت الله بما تيسر من الدعاء، ثم أخرجت شيئاً من الزاد، وأكلنا وحمدنا الله، ولما فرغنا من الأكل حضَرَت في المحل الذي نحن نازلون فيه قافلة تفاح من غزَّة هاشم مُرادها التوجه إلى مدينة نابلس، ثم حلت الأحمال عن ظهور الدواب وتركوها ترعى، فاشتريت من التفاح ما تيسَّر، ويُسمّى جنس هذا التفاح بياري، وهو مشهور في جميع أوصافه طعماً ولوناً ورائحة، ولا يصير هذا الجنس إلاّ في هذه المدينة المذكورة، فحملت تفاحة منه وتأملتها وذكرت خالقها، وأنشدت هذين البيتين: [و5ب]

تفاحةٌ فاح منها المِسك زاهية حُمرا صُفرا تطفي مُرَّ أكبادي
فكأنَّ خَد الحبيب إذ انثنى وكأن صُفرته كوجه مُفارق
فالأصفرار كلوني ثم حمرتها كلون دمعي إذا غنى له الحادي

ثم أكلنا من التفاح ما تيسَّر.

---

(1) كانت تقوم على بقعتها بلدة (جلجال) الكنعانية. وقد اقطعها الظاهر بيبرس سنة 663 هـ/1235م لعدد من قواده.

(2) كذا في الأصل.

ولما حضر وقت العشاء أقمتُ الصلاة وصلَّيت العشاء، ثم أخرجت الدواة وقطعة من الورق، وكتبت كتاباً للوالدة على نور القمر لأجل أن يطمئن قلبها أو لعلها أن تسعفني بدعوات صالحات أرى سببها الخير في سفري، وبعد كتابته دفعته إلى رجل من أهل القافلة القاصدة مدينة نابلس، وأنشدت هذين[1] البيتين :

يـا قاصـداً نحـوَ مـن روحـي معلقـة بهـم ومنـهم فـؤادي صـار معلـولا
فاحمـل كتـابي إلـيهم إنـني شـغف وأقرأ سـلامي وقل قد صار منحولا

ثم أخذنا مضاجعنا للنوم نحو ثلاث ساعات، وبعد أن انتبهنا اشتغلوا بالتحميل.

ثم ركبنا وسرنا حتى طلع الفجر، ولم أكن حينئذ على طهارة، فصعب علي ألاَّ أصلّي[2]، ولم يكن معنا ماء فصبرت قليلاً لعلّي أن أمر على ماء، فلم يحصل ذلك، فانشدت ناظماً هذين البيتين:

يا فاقد الماء دين الله ميسورُ فاقصد صعيداً ففي القرآن مذكورُ
وللضرورات في الأحكام منفعة والدين يُسرٌ وأنت اليوم معسور

ثم نزلتُ وتيمَّمتُ وصليتُ فرضَ الفجر، وركبت إلى أن تعالت [و6أ] الشمس، وكان ذلك اليوم يوم الخميس.

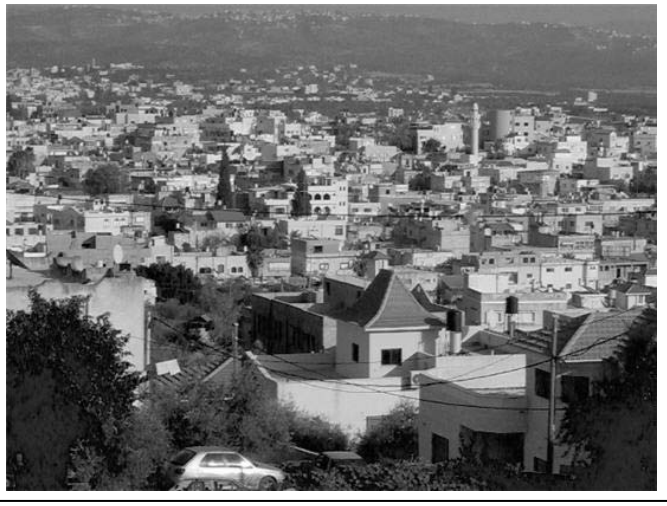

جلجولية اليوم

(1) في الأصل هنا (ناظمهما).
(2) في الأصل (الأصل).

[الرملة]

وقد وصلنا إلى مدينة الرَّملة[1]، ثم أن القافلة حلت حمولتها خارج المدينة، وحصل واحد من القافلة ما كان معي من الحوائج، ودخل معي إلى المدينة إلى أن أقبلنا على دكان السيد محمد عَرَفات[2]، فقابلني وسلم عليَّ، وحليت[3] عنده في الدكان بعد أن دفعت للمكاري أجرة الدّابة، ففرح لي وصار يؤانسني، ثم هيأ لنا طعاماً فأكلنا وحمدنا اللّٰه، وشربنا القهوة، وبعد ذلك سألته عن جناب الأفندي المحترم[4]، هل هو حضر إلى هنا أو لا؟ فقال لي: ليلة البارحة بات عندنا والبارحة توجه إلى يافه، فلما سمعت ذلك قلت ناظماً هذين البيتين:

حظّي طبيعته السوداء يكابدُني جميع ما رمته أراه ممنوعا

---

(1) تقع الرملة في منتصف السهل الساحلي الفلسطيني، قريبة من مدينة اللد، وقد أنشأت بأمر الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك، حينما كان واليا على فلسطين، سنة 97هـ/716م لتكون عاصمة لجند فلسطين، ثم أصبحت في العصر العباسي تابعة لولاية الشام، احتلها الصليبيون سنة 492هـ/1099م، واستعادها المسلمون سنة 495هـ/ 1102م، واعاد احتلالها الصليبيون مرة أخرى حتى حررها صلاح الدين الأيوبي بعد معركة حطين سنة 582م/ 1187م، وتعرضت إلى احتلال صليبي سنة 600هـ/ 1204م واستردها الظاهر بيبرس سنة 663هـ/1265. ونقل النابلسي عن الحنبلي قوله أنها «كثيرة الأشجار والنخيل وحولها كثير من المزارع والمغارس" وأورد ما ذكره عن أسواقها وتحصيناتها المنيعة، ثم قال «وأما في عصرنا هذا فلم يتبق أثر لتلك الأوصاف التي في الرملة، وقد زال سورها وأسواقها القديمة لاستيلاء الفرنج عليها نحو مائة سنة، ولم يتبق من المدينة ثلثها ولا ربعها، وبني فيها مسجد ومنارة مستجدة من زمن الملك الناصر محمد بن قلاوون وبعده، والموجود الآن من الأبنية في المدينة معظمه خراب متهدم، وقد صار المسجد الجامع القديم بظاهر المدينة جهة الغرب، وصار حوله مقبرة". الحقيقة والمجاز ص139. ورسم رحالة أوربي بقايا مئذنة الجامع وذكر أنه ابتنى بحسب لوح فوق البوابة سنة 1318م وسماه الجامع الأبيض. سر شارلز ولسون: لوحات من القرن التاسع عشر ص144.

(2) هو الجد السابع للرئيس الفلسطيني الراحل ياسر عرفات. وهو محمد بن عرفات بن محمد جلبي بن عرفات بن محمد بن يوسف إلى آخر نسبه، وقيل أنه ينتهي إلى جعفر الزكي بن الإمام علي الهادي بن محمد الجواد بن الرضا بن موسى الكاظم(ع). ينظر موقع منتدى مبرة السادة الأشراف، ونعت المؤلف له هنا بالسيد يدل على أنه من الدوحة النبوية.

(3) يريد: حللت.

(4) يقصد عمه محمد أبو السعود، وأينما ورد في الرحلة فهو له.

لو جئت للنهر أبغي الشرب من عطش من سوء حظي يعاد النهر مقطوعا

ثم قلت له: أريد منك أن تنظرني[1] دابة لعلي أن أحصله قبل نزوله البحر، فقام لينظرني دابة، وغاب قليلاً، ثم حضر وأخبرني أن ابن العمة جناب الشيخ سعيد الخليلي[2] ها هو جالس هناك، فذهبت عنده وسلمت عليه وقبلت يده، ففرح بي، ثم أخبرني أن جناب الأفندي أبقاني هنا لقضاء بعض مصالح، ومتى قضيت أذهب أنا وأنت إلى يافه، فحصل لي بذلك السرور والإطمئنان بالاستصحاب في خدمة الأفندي [و6ب]، ثم أحضر لنا بطيخة، وكان أول نزوله[3]، فكسرناها فإذا هي كثيرة البياض، فأكلنا منها ما تيسَّر، ثم أحضر لنا تفاحاً بياري وأكلنا منه أيضاً ما تيسر، ثم قلت في التفاح ناظماً هذين البيتين:

تفاح غزّة هاشم جمعتُ به أوصاف معشوق ولوعة العاشق
فكأنه خد الحبيب إذا انثنى وكأن صُفرته أصفرار مُفارق

ثم قال ابن العَمَّة: قم بنا إلى الجامع لأجل أن ننام فيه ساعة من الزمان لترتاح منا الأبدان كما هي عادة الأغراب. ثم سرنا إلى الجامع الكبير، فوجدته جامعاً محكم البناء، وله صحن واسع، وفي وسط الصحن قبة شاهقة، وفيها قبر أحد أولياء الله، فوقفنا على باب القبة، وقرأنا الفاتحة، ودعونا الله بما تيسر.

ووجدنا في الجهة الغربية بجانب الباب عن يمين الداخل بحرة[4] كبيرة والماء يأتي إليها من ساقية خلف الجدار الغربي، ثم توضأنا منها، ودخلنا إلى الجامع وصلينا ركعتين تحية المسجد، ثم نظرنا إلى حُسن إتقانه، فوجدناه في غاية الإحكام، وهو ثلاثة أكوار[5] ممتدة من المغرب إلى المشرق، وأما الكور الأوسط فإنه

(1) يريد: تكريني، أو تعيرني.
(2) من آل الخليلي الأسرة التي كانت تسكن مدينة الخليل وإليها نسبت، ثم انتقلت إلى يافا والرملة، ولها اليوم الشهرة الذائعة في فلسطين وخارجها.
(3) يريد في أول نزوله إلى السوق في موسمه.
(4) البحرة: المستنقع، والأرض المنخفضة، والأرض المتسعة. وسيذكرها فيما يلي برسم (جرة).
(5) أكوار، مصدر كار، كور العمامة الدور منها، واصطلاحاً ما استدار من السقف، على شكل القبة ونحوها.

أعلى من اللذين من جانبيه، والمنبر من الرخام، وهو مقابل للباب، وفوق الباب سُدَّة المؤذنين. وهذا الجامع يشبه جامع النصر الذي هو في مدينة نابلس في جميع بنائه [و7أ] وأكواره وإحكامه، لأنهما كانا كنيستين في زمن الإفرنج، ولما فتح المسلمون بلادنا، عملوا غالب الكنائس جوامع[1].

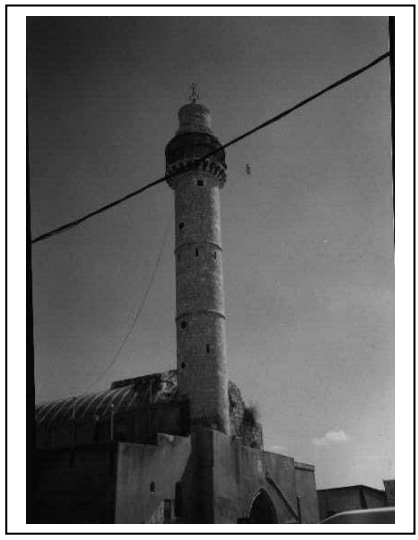

الجامع الكبير في الرملة

ثم نمنا قدر ساعة، ولما انتبهنا توضأنا وصلينا الظهر، ولما خرجنا من الجامع قلت فيه من النظام هذه الأبيات:

أضاء نورٌ ساطعٌ فقلت: هذا جامع!

ثم ذهبنا إلى السوق، واشترينا شيئاً من الطعام، وأكلنا وحمدنا الله تعالى.

---

(1) في الأصل: جوامعاً. هناك العديد من المعالم التاريخية والأثرية في مدينة الرملة مثل، الجامع الكبير وهو في الأصل كنيسة ماريوحنا المعمراني، بنيت في القرن الثاني عشر الميلادي، ثم تحولت إلى مسجد في القرن نفسه، وقد عمر هذا المسجد في عهد الناصر محمد بن قلاوون، ويقع في منتصف المدينة القديمة. أما جامع النصر في نابلس فيقع في وسط البلدة القديمة، وأصله كنيسة بيزنطية، حولها المسلمون إلى جامع باسم النصر، وكانت له مئذنة شيدت سنة 992هـ/1584م، ولكنها هدمت في زلزال سنة 1346هـ/1927م، وقد جدد الجامع سنة 1353هـ/1934م.

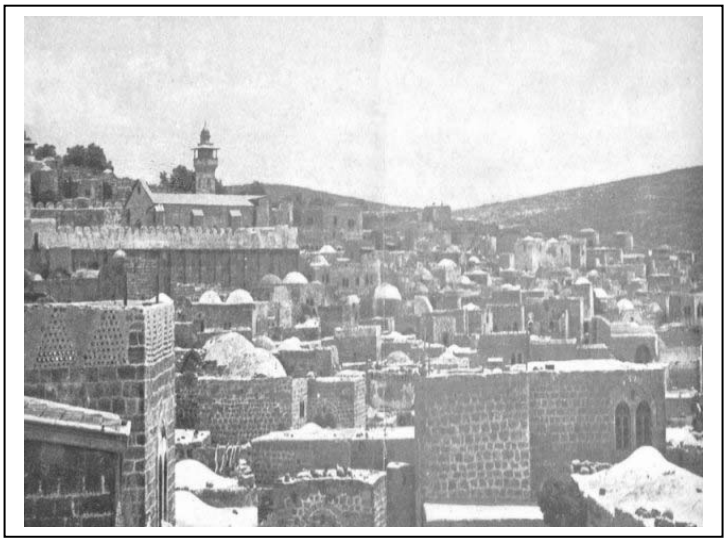

الرملة صورة قديمة

ولما حضر وقت العصر ذهبنا إلى الجامع المذكور، وصلينا العصر، ولما أتممنا الصلاة حضر عندنا ساعي من جناب الأفندي إلى ابن العمة، وصُحبته كتاب مضمونه: حين وصول الأحرف تحضر بسرعة، لأننا صباح تاريخه نريد السفر في البحر، فخرجت لأنظر دابة لاستأجرها إلى يافه، وقد يسَّرها الله من غير تعب.

ثم أخذت ورقة وكتبت كتاباً للوالدة ودفعته لواحد من أهل الرملة لأجل أن يرسله لنابلس. ثم ودعنا السيد محمد عَرَفات المذكور وغيره ممن له معنا معرفة سابقة. ثم ركبنا بعد أن قرأنا الفاتحة ودعونا الله بما [و7ب] بما تيسر من الدعاء، وسرنا متوكلين على الله، ولما خرجنا إلى البرية قلت في هذه المدينة من النظام هذه الأبيات:

دخلنا بلدةً بالظُرف تاهت ... يبيت الضيف فيها مستريحا
مقام العَون ثم أبوه فيها ... فتلك الرملة البيضاء صحيحا
وتجلب قدسنا منها ثمارا ... كبطيخ حوى لوناً وريحا
وباميةً وبيدنجان ينهوا ... كذا بَنَدوره[1] تُبري الجريحا
وتين ثم عنب ثم توت ... وصبر ثم مشمشها مليحا
فدوموا في هنا يا ساكنيها ... وهيموا و اشطحوا كرماً

(1) البندوة هي الطماطم بلغة أهل الشام.

[مقام علي]

وما زلنا نجد السير حتى وصلنا إلى محل فيه أبنية وقبب كثيرة، وهو مقام سيدنا الإمام علي رضي الله عنه[1]، فوقفنا وقرأنا الفاتحة ودعونا الله بما تيسر، وسرنا ولم نزل نجد حتى وصلنا إلى بساتين يافه، فوجدناها تسبي الناظرين، كأنها جنان أعدت للمتقين، فقلت فيها من النظام هذه الأبيات:

دخلنا بقعة تاهت دلالا ... على كل البقاع الزاهرات
وما هي بقعة لكن بعضاً ... من الفردوس في تلك الفلاة
حَوَت ما نشتهي من كل شيء ... كفاك من القطوف الدانيات
فأزهارٌ وأنهارٌ وروضٌ ... وحوضٌ مع نخيلٍ مثمرات
طيور فوق أغصان تناغي ... بألحان على أهل الحيات[2]
وتأكل ما تشاء من كل لون ... وتمرح في قصور عاليات

[و8أ] وكان قد بقي إلى الغروب نحو نصف ساعة.

ميناء يافا

(1) في كتاب سر شارلز ويلسون: لوحات من القرن التاسع عشر، ص140 صورة رسمها رحالة أوربي لهذا المقام يظهر فيها أنه يتألف من عمارة مربعة الشكل واطئة الجدران، تتوسطها قبة كبيرة مستدقة الرأس وتحيط بها ثماني قباب واطئة، والبناء كله مجصص بالبياض.

(2) لعله يريد: الحياة.

زقاق في يافا القديمة

جامع يافا الكبير

[بيارة الصلاحي]

ثم سرنا حتى وصلنا بيارة أحمد أفندي الصلاحي نائب يافه[1]، وإذا بأولاد العم خليل أفندي وأحمد أفندي وعلي أفندي، خارجين في استقبال ابن العمة وما عندهم من خبري شيء، فنزلنا في البيارة المذكورة، وربطنا الدواب، ثم سلّمنا[2] على أولاد العم، ففرحوا بنا غاية الفرح، ودخلنا معهم المدينة، وإذا بحامد القباني وصحبته عبد أسود، وهذا العبد يُسمّى بَخيت، وهو إلى السيد بكر نسيب، والسيد بكر نسيبه، وجميع من ذكرناه من أولاد العم وحامد القبّاني قد صحبهم جناب الأفندي معه، فسألتهم عن جناب الأفندي فقالوا: هو في بيت الحاج مصطفى أبو الزلف[3] صاحب السفينة التي نريد أن نسافر فيها، وقد أرسلنا إليكم لتحضروا إليه في هذا الوقت. ثم سرنا جميعاً حتى وصلنا بيت المذكور، ودخلنا على جناب الأفندي المحترم فقبلنا يديه، وأنشدت بمدحه ناظماً هذه الأبيات:

هذا الذي عم الوجود بفضله[4] فهو الذي في مصره مصباح
هذا هو البحر المعد فكل من يقصد لساحل فيضه يرتاح
إن الفصاحة والبلاغة ببابها أقفالها بيديك والمفتاح

[و8ب] وقد أجاد الشاعر[5] حيث قال هذه الأبيات موافقة لجنابه:

زهت الفصاحة إذ دعيت لها أباً وإذا دعت يوماً سواك لها أبا
يا صاحب الوجه الذي أنواره تمحو من الخَطْبِ الكريهِ غياهبا

---

(1) لعله أحمد الصلاحي من الأسرة الصلاحية المقدسية، وقد تردد ذكره سنة 1241هـ/1826م في وثائق إبراهيم باشا ضمن المحفوظات الملكية المصرية. الدباغ: بلادنا فلسطين ج10 ق2 ص357. والبيارة هي بستان الفاكهة، وقد اشتهرت مدينة يافا بكثرة بساتين الفاكهة حولها، حتى جاوزت الألف عدداً، أكثرها مغروس بأشجار الحمضيات. ينظر علي حسن البواب: موسوعة يافا الجميلة، بيروت.

(2) في الأصل: أسلمنا.

(3) آل أبو الزلف أسرة مقدسية قديمة لما تزل معروفة إلى اليوم.

(4) يريد: عم الوجود فضله.

(5) وردت هذه الأبيات في كتاب ألف ليلة وليلة غير منسوبة لأحد.

ولله دَرُّ القائل[1] حيث قال وأجاد:

إذا جاء الكرام بني الكرام فإنما تلد الكرام بنو الكرام كراما

وقال الآخر[2] هذين البيتين:

أيظلمني الزمانُ وأنتَ فيه وتأكلني الكلاب وأنت ليثُ

ثم بتنا تلك الليلة في بيت المذكور بعد أن وعدت بالاستصحاب في خدمته، ولما أصبح الصباح توضأنا وصلينا الفجر، وكان هذا اليوم يوم الجمعة، ثم نزلنا من بيت المذكور بعد أن أكلنا ما تيسر، ونوينا على النزول إلى السفينة بعد صلاة الجمعة. ثم دفعنا أخراجنا[3] وما معنا من الحوائج إلى طائفة السفينة لأجل أن يوصلوها [و9أ] إليها. ثم أخذنا ما نحتاج إليه من سَمْن وأرز وخرفان وغير ذلك. ثم إني تذكرت الوالدة فكتبت كتاباً أطلب منها الدعاء، ودفعت إلى رجل يقصد مدينة نابلس.

ولما قرب وقت صلاة الجمعة، ذهبنا للجامع وتوضأنا من الجَرّة في باب الجامع، ودخلنا إلى صحن الجامع، فوجدناه يشرح الصدر، مربع الأركان، وعلى دائر الصحن أروقة من كل الجهات، وفي كل رواق من الجهة الغربية حجرة لطلبة العلم، وفي وسط الصحن مزوَلة للشمس تُعرف منها الأوقات. ثم دخلنا إلى داخل الجامع فإذا هو كأنه روضة. وكان قد عمره وشيده محمد باشا أبو نبُّوت[4]، وكان قبل عمارته آل إلى الخراب، ولما عمره المذكور زاد في صحنه وأوقف عليه أوقافاً. ولما رأيت حسن إتقانه[5]، قلت من النظام هذين البيتين:

---

(1) الأبيات في كتاب ألف ليلة وليلة غير منسوبة لأحد.

(2) البيتان في كتاب ألف ليلة وليلة.

(3) أخراج، جمع خرج، وهو وعاء من شعر أو غيره، ذو عدلين، يوضع على ظهر الدابة.

(4) متسلم يافا ولواء غزة من1222هـ/ 1807م إلى 1234هـ 1819، كان أولاً مملوكاً لأحمد باشا الجزار، ثم ارتقى في المناصب حتى أصبح أمين الكمرك في عكا، وبعدها ولي منصبه، وبعد عزله عينه السلطان العثماني والياً على سالونيك في أثناء الثورة اليونانية. وتوفي سنة1233هـ/1833م. محمد عمر حمادة: موسوعة أعلام فلسطين في القرن العشرين، دمشق 2000.

(5) يقع هذا الجامع في شمال المدينة القديمة ويعرف بمسجد يافا الكبير، أنشأه سنة 1224هـ/ 1810م ووقف عليه بيوتا وأراض ودكاكين، كما أنه أنشأ مرافق تجارية وخيرية أخرى، منها سويقة، وفسقيتان إحدهما في شمال البلدة أيضاً، والأخرى خارجها على طريق القدس، ولما

أيا مسجدا قد زاد نوراً وبهجة ويا بقعة بالفضل هنّاكي مولاكِ

ثم صلينا ركعتين تحية المسجد، وجلسنا نصلي على النبي صلى الله عليه وسلم، ونتوسل به إلى الله أن يعيننا على سفرنا إلى أن صعد الخطيب على المنبر، وبعد أن خطب وصلى بنا الجمعة دعونا الله بما تيسر، ثم قصدنا باب البحر، متوكلين على الله، وقد [و9ب] سار معنا لوداعنا الشيخ حسين الدجاني المفتي بيافه[1]، وأحمد أفندي الصلاحي المتقدم ذكره، وبقية أعيانها ومن له معنا معرفة، إلى أن وصلنا البحر، فودعونا ورجعوا.

[ركوب البحر]

ثم نزلنا في فلك صغيرة بعشرة مقاديف لأجل أن توصلنا إلى السفينة، لأنها كانت راسية بعيداً عن المينه[2] خوفاً من الصخور[3]، وقد حصل لي خوف شديد

تزل هذه الفسقية قائمة إلى اليوم، وهي آية من آيات الفن الإسلامي، ومنها خندق لحماية البلدة. وتنظر صورة لهذه الفسقية أو السبيل في كتاب سر شارلز ويلسون: لوحات من القرن التاسع عشر، ص139 ومنها يظهر أن السبيل كان يتألف من بناء مستطيل، له ايوان في صدره يحتوى سقاية الماء، ويعلو البناء ثلاثة قباب عالية، وفي اركانه أبراج نحيفة يعلو كل منها قبة مضلعة بالغة النحافة والارتفاع.

(1) هو الشيخ العلامة حسين بن الشيخ سليم بن سلامة الدجاني، جاء في وثيقة عثمانية مؤرخة في 9 ربيع الأول سنة 1240هـ/1828م «عين السادات الفخام السيد حسين الدجاني المفتي بيافا حالاً"، ويرتقي آل الدجاني في نسبهم إلى الدوحة النبوية، وقد ولاهم السلطان سليمان القانوني نظارة وقف النبي داود في القدس فورث أخلافهم هذا المنصب. وكانوا يسكنون في قرية دجانية قرب القدس فعرفوا بلقبهم هذا، وخرج منهم كثير من العلماء. ينظر نسب عائلة الدجاني في موقع بلدة القلمون في لبنان.

(2) يريد: الميناء

(3) أشار السر شارلز ويلسون إلى وجود منطقة صخرية نصف دائرية تنتشر أمام ساحل المدينة، وإن هذه المنطقة تشكل ميناء يافا، وهكذا فإنه كان ميناء كبيراً ولكنه قليل العمق لا تدخله غير الزوارق الصغيرة، حتى أن الزوارق البخارية كانت تضطر إلى الرسو على بعد حوالي نصف ميل عن الشاطئ، ثم يجري نقل الركاب في مراكب صغيرة. لوحات من القرن التاسع عشر ص131.

من البحر لأنه كان كبيراً هائجاً، وصار الموج يرش علينا الماء حتى بل ثيابنا، فحصل لي رعب ولكن تسليت بقول الشاعر[1] حيث قال وأجاد في هذين البيتين:

لابدَّ لي من مدةٍّ محتومة فإذا انقضت أيامها متُّ
لو صارَعتني الأُسْدُ في غاباتها لقهرتُها ما دام لي وقتُ

وما زلنا على هذه الحالة إلى أن وصلنا السفينة وطلعنا إليها، وإذا هم رفعوا المرساة الحديد، وفرَدُوا القلوع، فصارت كما قال الشاعر هذين البيتين:

أنظر إلى مركب يسبيك منظرُهُ تسابق الريح من سير سرّاء
كأنه طائر قد مَدَّ أجنحة أتى من الجو منقضاً على الماء

وقلت في سفن البحر من النظام هذه الأبيات: [و10أ]

أعد نظرا إلى سفن النجاة تراها كالجياد الصافنات
تأمل في طيور البحر وانظر إليها تلقها كالعاديات
بأجنحة كمثل البرق تجري تسير بها إلى كل الجهات
فكم من آية للّه جَلّتْ فمن ذاك الجواري المنشآت

ثم سرنا، وكان الريح مخالفاً معنا، فصارت البحرية تسيرها بالحبل، ولكن بغير فائدة، فإن من الأمثال الدارجة (القصارة[2] القليلة لا تملأ ضروفاً كبيرة)، فاستمر معنا الريح مخالفاً إلى المغرب، فتذكرت قول الشاعر حيث قال:

جمع الهوا مع الهوى في مهجتي فتكاملت في أضلعي ناران
فقصرت بالممدود عن نيل المنى ودرجت بالمقصور يد الفاني

ولما حضر وقت العشا، خرجت علينا ريح طيبة موافقة لطريقنا، فحمدنا اللّه على ذلك. ثم أن جميع من [في] السفينة داخوا وقذفوا جميع ما في بطونهم في البحر من شدة سيرها إلاّ هذا الفقير، فإني دختُ قليلاً ولكني بحمد اللّه ما حصل

(1) البيتان من ألف ليلة وليلة غير منسوبين لأحد.
(2) القصارة ما بقي من السنبل من الحب مما لا يتخلص بالدوس، أو القشرة العليا من الحب.

لي من القذف شيء، وصرنا نقصر الصلاة ونجمعها ونصلي من قعود لشدة ما نحن فيه من الدوخة.

بقايا قيسارية

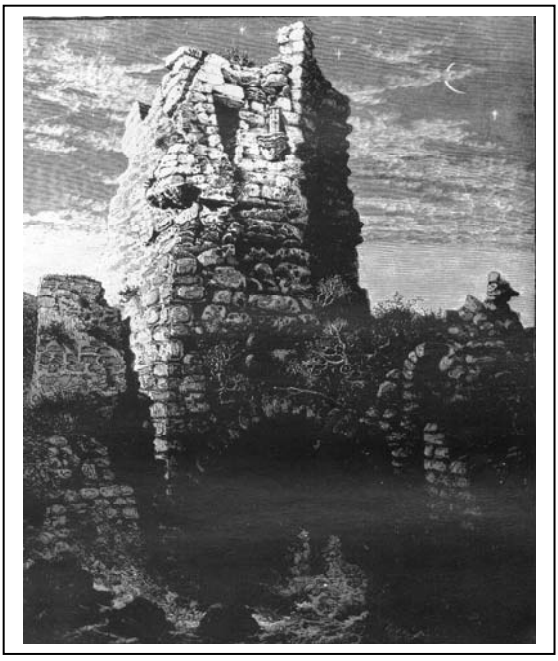

برج قلعة قيسارية*

[أرسوف]

ثم سرنا قليلاً حتى مررنا على مقام سيدنا علي بن عليل، وهو على ساحل البحر في أرض أرسوف[1]، وهو من أولاد سيدنا عمر بن الخطاب، وهو الجد السادس له، وله كرامات [و10ب] ظاهرة، حتى أن الإفرنج تعتقده، وإذا مروا عليه في البحر يكشفون رؤوسهم ويستقبلونه تعظيماً له[2]، وهذا كله ذكره الحنبلي في تاريخه[3]، فقرأنا الفاتحة ودعونا الله بما تيسر، ثم قلت من النظام هذه الأبيات:

---

(1) أرسوف مدينة ساحلية في قضاء يافا، نشأت في العصر الفينقي، وعرفها اليونانيون باسم (أبولونيا) نسبة إلى الإله أبولو، استولى عليها الصليبيون سنة 492هـ/ 1099م، واسترجعها المسلمون بعد انتصارهم في معركة حطين سنة 1187م، ودمروا حصونها، ثم استولى عليها الصليبيون مجدداً سنة 1191م، ولكن السلطان المظفر بيبرس استرجعها نهائياً سنة 1265م، واستقرت في العصور التالية بيد العثمانيين.ووصف كتشفر وهو رحالة أوربي من أواخر القرن التاسع عشر مدينة أرسوف بأنها أنشئت على اساس ضعيف هو عبارة عن صخر ناعم على الشاطئ، فانهار الأساس وسقطت الأسوار والحيطان كتلاً كبيرة، تحطم الكثير من هذه الأسوار لكن أجزاء كبيرة سقطت من أماكن عالية وظلت متراصة كما كانت. سر شارلز ولسون: لوحات من القرن التاسع عشر ص120.

(2) يبعد عن شمال يافا بنحو 16 كم، وهو يضم ضريح علي بن عليل بن الخطاب، وتختلف المراجع في نَسَبه، ففي كتاب الأنس الجليل لقاضي القضاة مجير الدين الحنبلي أنه الشيخ علي ابن الشيخ عليل بن محمد بن يوسف بن يعقوب بن عبد الرحمن بن عبد الله ابن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب، أما مشجر ال العمري بدمشق فيذكر أنه الشيخ علي ابن الشيخ عليل ابن الشيخ مسلمة ابن الشيخ يحيى ابن الشيخ محمد بن عاصم بن عبد الله ابن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنهم. احتلها الصليبيون سنة 582هـ/ 1187م مدة، واستعادها السلطان الظاهر بيبرس على القرية بعد حصار دام 40 يوماً في سنة 663هـ/ 1265م، وتُركت القرية مُدمرة بما فيها القلعة حتى القرن السادس عشر الميلادي، حينما ذُكرت سجلات الضرائب العثمانية سنة 1004هـ/1596م أسماء 22 عائلة و4 من العُزاب، وقد هجرها ساكنوها سنة 1948م.

(3) هو كتاب الأنس الجليل لقاضي القضاة مجير الدين الحنبلي العليمي.

جامع علي بن عليل

هذا همام جدُه الفاروق من ... قد نال من مولاه فرق حجابه
عمر أمير المؤمنين خليفة ... لنبينا وكذاك من أصحابه
يا ليتني في البر أنشق مِسْكه ... وأمرّغ الخدَّين في أعتابه
وأرى ضريحاً فيه سلطان الملا ... كهف العطاء وألتجي بجنابه
وأحط أثقالي وما حملته ... من نائبات الدهر في أبوابه
هذا الذي من شِبل أصحاب عَلَوا ... رُتباً فهم للّه من أحبابه
فعلي ابن عليلنا نرجوا به ... من ربنا حفظاً لنا نرضى به

مقام علي بن عليل

ولم تزل الريح معنا طيّبة حتى مررنا على مدينة قيسارية[1] مع طلوع الشمس، وكان ذلك اليوم يوم السبت. وهذه المدينة خربة، قد هدمها الملك صلاح الدين حين فتحها. وأهل يافه يأخذون منها الحجارة لبنائهم، وكانت مسافة ما بيننا وبين البر نحو فرسخ.

[عكا وصور]

ثم أننا قبل الظهر مررنا على عَكَّه.

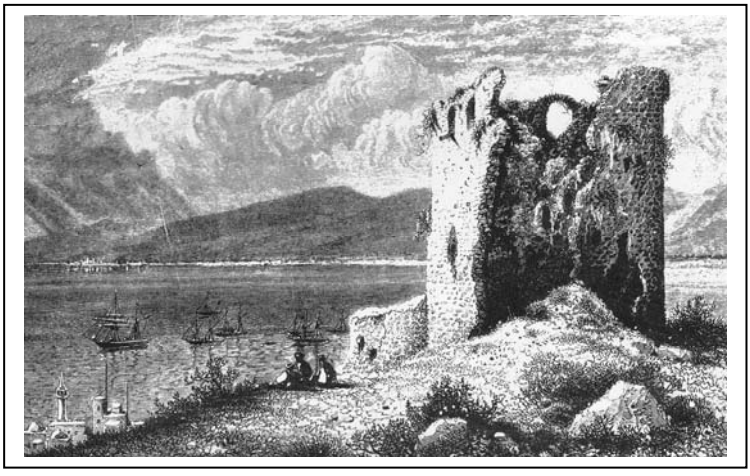

قلعة حيفا ومن بعيد تبدو مدينة عكا*

(1) قيسارية (Qisarya) مدينة فلسطينية تاريخية. تقع على شاطئ البحر المتوسط، بناها الكنعانيون ، وسموها (برج ستراتون) وهي من أقدم المناطق المسكونة إلى اليوم،، ذات موقع أثري، وكان هيرودوس قد أطلق عليها اسم (قيصرية) نسبة إلى القيصر الروماني (أوغسطس). اشتهرت بمينائها الذي احتوى على رصيف مزدوج للسفن لبثت من بقاياه قطع ضخمة من حجر الكرانيت، ونصب رومانية، ومسرح، فتحها المسلمون، واحتلها الصليبيون سنة 1101م، ثم استعادها المسلمون، واستولى عليها الصليبيون كرة أخرى، حتى استقرت بيد المسلمين على يد السلطان بيبرس سنة 1269م. ونقضت مبانيها بعد ذلك، ونشأت عندها قرية عربية، ثم أزيلت هذه القرية تماماً في 1948 وبنيت عليها مستعمرة يهودية باسم أورعكيفا. وقد أظهر مسح أثري لموقع القرية وجود بقايا حيطان وزجاج وقطع من المرمر والخزف في كثبان الرمال. وهي تتبع محافظة حيفا. ينظر شارلز ويلسون: لوحات من القرن التاسع عشر، ص114– 116، وموقع (برة قيسارية).

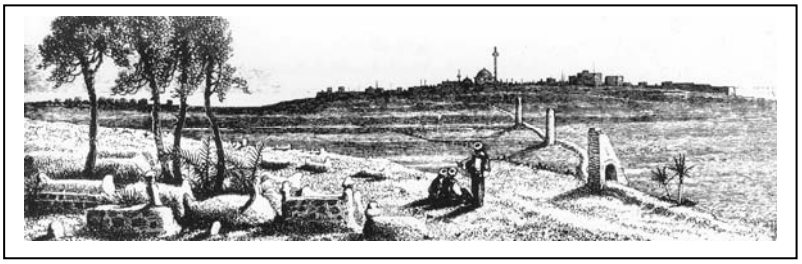

مدينة عكا من الشمال الشرقي*

وفي وقت العصر مررنا على مدينة صور.

ميناء صور القديم*

[بيروت]

وفي تلك الليلة [و11أ] وقت العشاء رأينا ضوء صَيْدا مقابلنا.

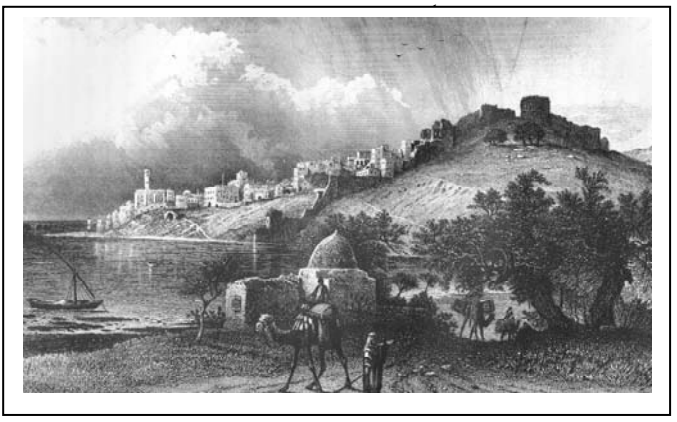

صيدا في القرن التاسع عشر❖

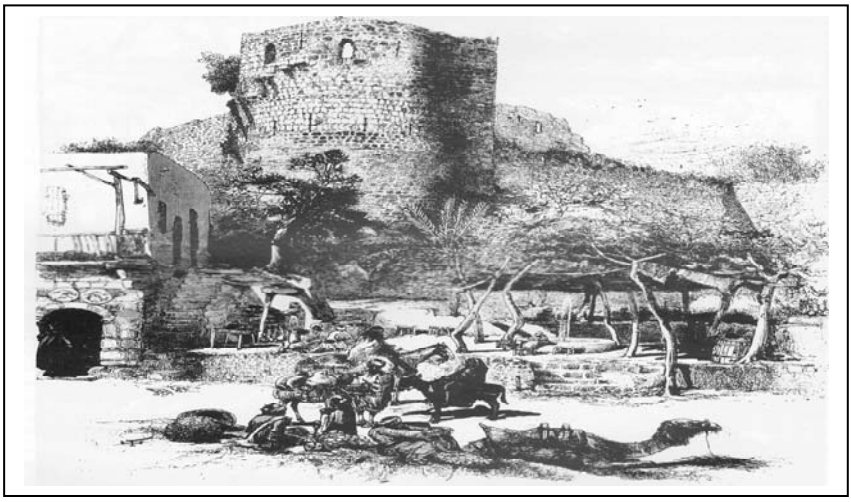

قلعة صيدا القديمة*

وكانت الريح قد خفّت معنا، ثم أخذنا مضاجعنا للنوم بعد أن صلَّينا العشا مقصورة، فلما انتبهنا وجدنا السفينة راسية والقلوع مطويّة، وإذا نحن قد وصلنا ثغر بيروت، وكان الفجر قد لاح، فتوضأ[نا] وصلينا الفجر، وكان ذلك اليوم يوم الأحد، ومدة سَفَرنا في البحر من يافه إلى بيروت ليلتين ويوم، وذلك تيسيرٌ من الله، ولكون خطوات الفراق مُيَسَّرة، ثم أنشدت ناظماً هذه الأبيات:

المرءُ إن طلب الفِراق ضرورةً ... يأتيه يسير إلى بابه
ويرى جميع الناس قد حضروا له ... بجميع ما يبغيه من أسبابه
ويرى طريق الخوف صارت آمنة ... تطوى له في البُعد من أحبابه
وإذا ما أراد لقاءً بمُحبِّه ... يأتيه يسير إلى أعتابه
ويرى جميع الناس قد منعوه عن ... طلب اللقاء فيستغيث لما به
ويرى طريق الأمن قد خيفت وقد ... وتجد حُجُب الإله طريق حجابه

ولما طلعت الشمس أقبلت علينا بحرية بيروت بالقوايق[1] لأجل نقل من في السفينة من الركاب وغيرهم، ونزلنا نحن في قايق، وقصدنا الثغر حتى طلعنا على

(1) جمع قايق، وهو ضرب من القوارب.

مدينة بيروت، وكان [و11ب] الكُمرُكجي فيها رجل من مدينة يافه وله معرفة مع جناب الأفندي اسمه حسن رضوان، فلما رآنا نزل إلينا وسلم على جناب الأفندي وعلينا، ثم صعدنا معه إلى أوضة[1] الكمرك، وسقانا بشربات السُكر والقهوة، وجلسنا عنده نحو ساعة، ثم حضر عندنا الحاج مصطفى أبو الزلف صاحب السفينة، وأخبرنا أنه وجد لنا محلاً لصديق له، فذهبنا معه إلى أن وصلنا إلى بيت منظوم، فخرج لنا صاحبه ولقانا بالترحيب، وهو متوسط الحال بين الفقر والغنى، وله صنعة يخرج منها قوته وقوت عياله، اسمه السيد يوسف الداعُوق[2]، فصار يخدمنا ويأخذ الفلوس، ويشتري لنا ما نحتاجه من لحم وارز وسمن وغير ذلك، ويعطيه إلى زوجته فتطبخه لنا، وتغسل لنا ثيابنا، وحصلت لنا راحة تامة في بيت المذكور، وشكرناه على ما فعل معنا من جميل الإحسان حيث لم يكن لنا معه معرفة سابقة.

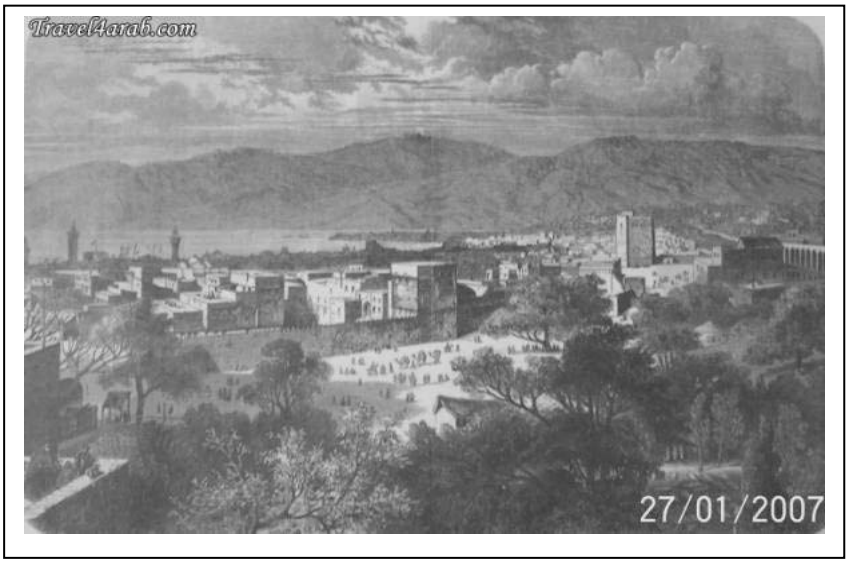

ميناء بيروت سنة 1834

(1) أوضة لفظة تركية بمعنى الحجرة.

(2) آل الداعوق أسرة قديمة في بيروت، تضرب في جذورها إلى إحدى الهجرات الأندلسية التي وفدت إلى بلاد الشام بعد خروج العرب من الأندلس، ينظر موقع www. Yabeyrouth

[حمام في بيروت]

ثم بِتنا تلك الليلة في أتم سرور، ولما أصبح الصباح توضَّأنا وصلينا الصبح، ونوَينا الذهاب إلى الحمّام الذي قال فيه الشاعر هذين البيتين[1]:

إن عيش الحمّام أطيب عيشٍ غير أن المقام فيه قليل
جنَّة تُكره الإقامة فيها وجحيمٌ يطيب فيها الدخول

[و12أ] وكانت جميع ثيابنا بقيَت في السفينة، وذهب واحدٌ منا إليها وجاء لنا بثياب لأجل أن نُغيِّر ما علينا من الثياب الوسخة. ثم ذهبنا إلى حمام يقال له حمام السَّراية[2].

سراي بيروت اليوم

ولما دخلناه وجدناه في غاية التنظيم، وفي دائره التُخوت الخشب، وعلى كل تخت طرّاحة[3]، ومن فوقها سجادة، فشلحنا[1] ما علينا من الثياب، ودخلنا بيت

(1) البيتان في ألف ليلة وليلة غير منسوبين لأحد.

(2) هو أحد أربعة حمامات رئيس اشتهرت في بيروت في العصر العثماني، كان يقع قرب السراي الكبير (حالياً مركز رئاسة مجلس الوزراء اللبناني) وقد شيد هذ السراي سنة 255هـ/1840م، فيكون الرحالة قد مَرَّ ببيروت بعد هذا التاريخ. أما الحمام فقد نَوَّه به الرحالة عبد الغني النابلسي (المتوفى سنة 1143هـ/1730م) فيكون أقدم عهداً من إنشاء السراي المذكور.

(3) الطراحة ما يطرح على السرير من فرش ونحوه.

الحرارة، فوجدناه فُرْجة للناظرين، وفي وَسَطه مصطبة مربعة الأركان، نحو خمسة أذرع في خمسة أذرع[2]، وارتفاعها ذراع، يجلس عليها من يشرب الدخان والتنباك والقهوة، وسائر بلاطه من الرخام، وهو في غاية الاتقان، فقلت فيه من النظام هذه الأبيات:

وحمامٌ ترى الأقمار تزهو ... به وعليه قد غنى الهَزارُ
ومن عَجَبٍ تضيء لنا نهارا ... وفي الليل الكسوف لها شعارُ
نعيمٌ في جحيم ذا عجيب ... وكيف[3] مع النعيم يكون نارُ

فجلسنا فيه حتى عرقت أبداننا، فحضَّروا لنا الدلاكين، وأخرجوا الوسخ من أبداننا، ثم أحضروا الصابون وصبَّنونا[4]، وأحضروا لنا الفُوَط الحَمَويّات[5]، فالتففنا بها وخرجنا من الحرارة، وجلس كل واحد منا على تخت، وحصل لنا النشاط، ثم أحضروا [و12ب] لنا شربات السُكر بالثلج والقهوة، ولما نشفت أبداننا من العرق لبسنا[6] ثيابنا، وخرجنا من الحمام بعد أن دفعنا لهم الأجرة، ولساني يلهج بقول الشاعر[7]:

وافيتُ منزله فلم أرَ حاجبا ... إلا ويلقاني بوجه ضاحك
ودخلتُ جنته وزرت جحيمه ... فشكرت رضواناً ورأفة مالك[8]

ثم أتينا إلى محلنا، وقد حضر عندنا السيد عمر الصبّاغ، وكان قد حضر إلى بيروت قبلنا بيومين ويريد التوجه إلى الآستانة العلية، وهو في استنظار[9] مَركَب

---

(1) في الأصل: فسلحنا.
(2) في الأصل : أزرع.
(3) كذا تقرأ في الأصل.
(4) واضح أنه اشتق فعل (صَبَّن) من الصابون نفسه، يريد غسلونا به.
(5) نسبة إلى مدينة حماة لشهرتها بصناعتها.
(6) في الأصل : لبسنا.
(7) هو أحمد بن محمد ابن الخازن الدينوري البغدادي المتوفى سنة 452هـ.
(8) كذا في الأصل.
(9) يريد : انتظار.

النار[1]، فسلمنا عليه واستأنسنا معه ساعة من الزمان، ثم حضر عندنا قاضي القدس المعزول أحمد نظيف، وكان خروجه من القدس من قبلنا بعشرة أيام، وهو أيضاً يستنظر مركب النار، فسلم علينا، ثم حضر عندنا جناب الشيخ مصطفى الرفاعي من أولاد سيدنا الرفاعي وخادم وشيخ زاوية سيدنا الأوزاعي[2]، وكان قد سبق له اجتماع مع جناب الأفندي، فسلم علينا ودعانا إلى بيته، ولما حضر وقت المساء أرسل لنا ولده، فذهبنا، ولما دخلنا بيت المذكور تلقانا بالبشاشة والإكرام، ولقد أجاد الشاعر حيث قال[3]:

بشاشةُ وجه المَرءِ خيرٌ من القِرى فكيف إذا جاء القرى وهو يضحك

وهو كريم النفس، حسن الطباع، يحب الفقراء والدراويش. ولما جلسنا [و13أ] أنشدت ناظماً هذين البيتين:

حفظت ودادنا يا ابن الرفاعي لقد طاعت لوالدك الأفاعي
حباك اللّٰه عِزّاً ثم مجداً وسار إليك كل الخير ساعي

ثم أحضر السُماط، فأكلنا ما تيسر، وحمدنا اللّٰه، وشربنا القهوة، ثم طلبنا الإذن، وخرجنا فخرج معنا إلى خارج الزقاق، ثم ذهبنا إلى محلنا.

وفي ثالث يوم دعانا إلى محله مصطفى آغا البيروتي.

---

(1) هو أول اسم سميت به السفينة بعد أن زودت بمرجل يحمى بالنار لتحريك رفاسها، ثم عرفت، في نهاية القرن التاسع عشر، بمركب بخار، لما لوحظ بأنها تعمل بقوة البخار، لا النار المباشرة، واستبدلت بعد ذلك باسم الباخرة.

(2) تنسب هذه الزاوية إلى الإمام العلامة عبد الرحمن بن عمرو بن محمد الأوزاعي، ولد في بعلبك سنة 88هـ/707م وعاش في دمشق ثم انتقل إلى بيروت حيث اتخذ بيته زاوية للعلم والفقه، وتقع في سوق الطويلة، وهذه الزاوية هي غير جامع الأوزاعي المعروف في منطقة حنتوس التي عرفت فيما بعد بالأوزاعي. وكانت وفاته سنة 774م. ونوه النابلسي بمدرسة الأوزاعي وبزاويته وقال أن الأخيرة عمرتها امرأة من بيت سيفا، وأن في داخل المزار مكان عليه قبة وفيه محراب وعليه الهيبة والوقار والجلال. الحقيقة والمجاز ج1 ص80-83.

(3) هو عبد العزيز الديريني المتوفى سنة 697هـ.

وفي اليوم الرابع حضر من مدينة طرابلس جناب الشيخ محمود الرافعي[1]، وهو من أكابر الصلحاء والعلماء العاملين، وله معرفة ومحبة كثيرة لأولاد الشيخ أبو السعود، وهو لطيف الذات، رقيق الطبع، كل من رآه أحبه، وهذا دليل على محبة الله له. ولما سمع بخَبَرنا حضر عندنا، فتلقيناه وقبلنا يديه، ففرح بنا وفرحنا به، فأنشدته ناظماً هذين البيتين:

كأنك المبتدأ فضلاً ومعرفة رفعت بالإبتداء أوليت من نعم
وإنني خبر عن كل مبتداك أقل يا رافعي أنت محمود بكل فم

ثم في اليوم الرابع من دخولنا لبيروت، دعانا المذكور إلى بيت تلميذه. وفي اليوم الخامس حضر عندنا رجل من أهل يافه، وأخبرنا أن أعيان الرحلة حضروا بطلب من مصطفى باشا، سَر عَسكر [و13ب] وعليهم اليَسَق[2]، وهم نائب الرملة حالاً السيد محيي الدين أفندي الخيري[3]، ونائبها سابقاً حسن أفندي أبو الهدى[4]، ومفتيها سابقاً السيد شمس الدين أفندي الخيري، وكان السبب في طلبهم بن عبد الله آغا المُسلماني لأن والده كان متسلماً في مدينة الرملة[5]، وقُتل ولم يعلم قاتله، فاتَّهم أعيانها باطلاً، وعرض حاله إلى مصطفى باشا، فطلبهم المذكور لأجل تحقيق القاتل، ثم أن المذكورين أرسلوا إلى جناب الأفندي من شدة ما بهم من الفزع أن يشفع لهم عند المذكور، فذهب جناب الأفندي محبة واعتقاد، وما

(1) لم نقف على ترجمته، وأسرته عمرية النسب، وهي من أكثر أسر طرابلس شهرة بمن خرجتهم من أعلام الشام ومصر في العصر العثماني، من القضاة والمفتين والأدباء، وأما معرفة محمود الرافعي هذا بأسرة أبي السعود المقادسة، فسببها علاقة وصلت بين الأسرتين منذ أن تولى بعض أبنائها القضاء في القدس، ومنهم فرع سكن في القاهرة من أبرز أعلامه الأديب مصطفى صادق الرافعي (1880–1937)، والمؤرخ عبد الرحمن الرافعي (1889–1966م). ينظر موقع منتدى القلمون.

(2) اليسق: كلمة مغولية الأصل تركية، تعني هنا: المنع.

(3) آل الخيري أسرة عمرية النسب، من الأسر المعروفة في مدينة الرملة.

(4) من آل أبي الهدى الفاروقي، الأسرة المعروفة في مدينة الرملة، ولها فرع في نابلس موطن مؤلف هذه الرحلة. ينظر الدباغ: بلادنا فلسطين، ج2 ق2.

(5) آل المسلماني أسرة كبيرة لما تزل تسكن الرملة، وتتوزع فروع منها في مدن فلسطينية أخرى.

خرج من عنده حتى قضيت حاجتهم وبُرِّئوا من تهمتهم، وبعد ساعة حضروا عندنا وشكروا جناب الأفندي على ذلك، ثم استقاموا عندنا، وصار كل من يحضر من بلادنا يأتي عندنا، فصرنا نحو الخمسة وعشرين واحد، وجميع مصروفنا من جناب الأفندي، وكل يوم يبلغ المصروف نحو المائة غرش.

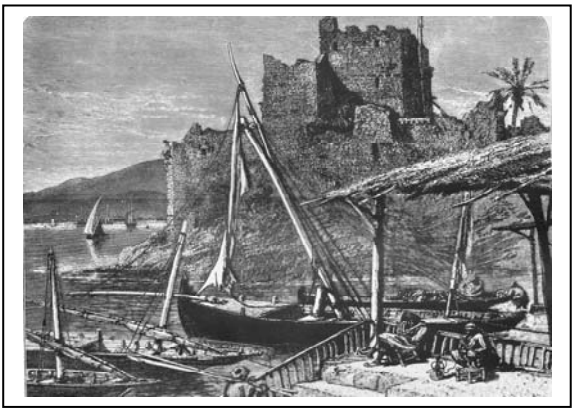

قلعة بيروت واحدى مقاهيها المطلة على البحر*

وكنا في هذه المدة نستنظر مركب النار، فلم يحضر، وكانت مدة إقامتنا في بيروت ثمانية أيام، ثم عزمنا على النزول في السفينة التي حضرنا فيها والتوجه إلى صوب مقصدنا، ولما كان اليوم الثامن [و14أ] أرسلنا جميع ما نحتاج إليه من الزاد إلى السفينة.

ولما حضر وقت المغرب سرنا قاصدينها، وسار معنا لوداعنا بعض من أهل بيروت، ولما وصلنا المينه[1] قلت من النظام هذه الأبيات:

يا سائراً نحو هذا الثغر من غلس	أحصل من السير وارجع سالم الذات
لم تَدرِ أن بها قوما لهم شغف	في روضة البخل قد عاشوا بلذات
لا يعرفون ضيوفاً لا ولا نظروا	بل يسمعون بهم في بعض أوقات
وحَرٌّ كجحيم أضرمت شرراً	قد أحرمت أهلها طيب المَسرّات
أظن لولا جبال الثلج دائرة	من حولها كنت تلقاها خليّات

(1) الميناء وقد تقدمت.

[الإبحار من بيروت]

ثم ودَّعنا من كان حاضراً، وسرنا إلى السفينة، وبتنا تلك الليلة نستنظر خروج الريح، وما خرج إلا مع طلوع الفجر، وسرنا مع الريح حتى قطعنا عن بيروت[1]، فسمعت في السفينة صوت رجل دمشقي ينشد هذين البيتين[2] بصوت أنيس وهما:

أمرُّ على الديار ديار ليلى أقبِّلُ ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا

فقلت مشطراً لهما:

أمرُّ على الديار ديار ليلى أهيم بها وقد أنست نارا
أطوف بحيها فرحاً وبها أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبي وصارت أدمعي تجري غزارا
ولا حب الجدار أذاب جسمي ولكن حب من سكن الديارا

وقلت أيضاً مخمساً لهما:

نسيم الهجر هب عليَّ كيلا أرى فرحاً وعيل الصبر عيلا
فقمت أسير قبل الفجر ليلا أمر على الديار ديار ليلى
أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
واهتف باسمها وباسم ربي أنادي ليت شعري اين ذنبي
أتيت ديارها من فرط حبي وما حب الديار شغفن قلبي
ولكن حب من سكن الديارا

ثم سرنا وقد غاب عنا جميع البر، وصرنا لا نرى إلاّ السماء والماء، والبحريَّة كلما رأوا محلاً لا يظهر فيه البر مثل هذا يسمونه إباحة[3]، فالموضع الذي نحن

(1) يريد: ابتعدنا حتى انقطعت رؤيتها عنا.
(2) البيتان لقيس بن الملوح مجنون ليلى.
(3) أصل هذا المصطلح من أباح: أي أتاح، فهي المنطقة التي تخرج عن نطاق ما كانت تشرف عليه سلطات البحر عهد ذاك.

فيه يسمى إباحة قبرُس. ولما صرت في هذا الحال رأيت الموت أقرب إلى الحياة لأنه لم يسبق لي نزول البحر قبل هذه المرة، وصرت أجري الشهادتين على قلبي ولساني خوفاً أن يخرج علينا ريح ثقيل، ولكن تسليت [و15أ]بقول الشاعر، حيث قال وأجاد هذين البيتين[1]:

يا خائفاً من دهره كن آمناً وكل الأمور إلى الذي بسط الثرى

إن المقدر كائن لا ينمحي ولكن الأمان من الذي قدرا

فاستقمنا يوما كاملا[2] في هذه الإباحة ولم يظهر لنا من البر ولا من الجبال شيء حتى نستأنس بالحياة، فحصل لي هم شديد، فقلت من النظام مخاطباً لهذه الإباحة هذه الأبيات:

أباحة قد أباحت قتلي سَفَهاً يا عاذلي ها غراب البَيْن قد ناح

لأنني قد طلبت الوصل مرتجيا والنار قد أضرمت والسرُّ قد باح

قالت: ألم تدر أن الوصل مفترس كم من رؤوس من الأبدان قد زاح[3]

[قبرس]

وفي ثاني يوم بانت لنا جبال جزيرة قُبرُس على بعد، وكان الريح قد انقطع عنا بالكلية، واستمر بنا هذه الحالة ثلاثة أيام. وفي اليوم الرابع، وقت العصر، خرجت علينا رياح طيبة، وما صار وقت الغروب حتى أرست بنا السفينة على جزيرة قبرس، على أسكلة من أساكل قبرس[4]، تسمى الطُوزله، ومعناها بالعربية الملاحة[5]، لأن غالب السواحل [و15ب] تجلب منها الملح. وكانت مدة سفرنا من

(1) البيتان في ألف ليلة وليلة غير منسوبين لأحد.

(2) في الأصل: يوم كامل.

(3) بعد هذا بيتان آخران شطب عليهما المؤلف بالحبر فلم يتبينا.

(4) الأسكله: لفظة تركية مأخوذة من الايطالية وتعني رصيف السفن، وأصلها من العربية صقالة، والصقالات ألواح صقيلة من الخشب كانت تستعمل جسراً لصعود المسافرين من الأرصفة إلى السفينة أو النزول منها.

(5) قرب بحيرة لارنكا المالحة عند ميناء سكالا scala في لارنكا المطلة على البحر المتوسط في جنوب جزيرة قبرس.

بيروت إلى الجزيرة المذكورة أربعة أيام. ومن المعلوم عند البحرية أن مسافة ما بين بيروت وقبرس مقدار ما بين يافه وبيروت.

ثم بتنا تلك الليلة في السفينة، فما [أن] صار نصف الليل إلاّ وقد طلع علينا ريح ثقيلة هاج البحر منها وصار كالجبال، فقامت طائفة المركب ورمت مرساة من الجانب الآخر فحمدنا الله حيث لطف بنا وأوصلنا إلى هذا الموضع قبل هذه الليلة، فاستمر هذا الريح نحو ساعتين، ولما أصبح الصباح صلينا الفجر، وطلعنا إلى البر في ناحية الكرنتينه[1]، ثم حضر عندنا من داخلها علي محسن وأخوه محمد درويش، وسلموا علينا من غير ملامسة، ثم جلسوا بعيداً عنا وعليها الإنكسار، لأنهم منفيين من القدس بسبب مخالطتهم لمصالح الدولة. ثم إنا سألنا عن مدة الكرنتينة، فقالوا: خمسة عشر يوماً[2]، وكنا قصدنا أن نعمل كرنتينه في هذا الموضع، فلما سمعنا بطول المدة، لم يسعنا ذلك، وهذه الكرنتينه قد حدثت في هذا الزمان، ويزعمون أنهم يخرجون الطاعون والموت من الآدميين وملابسهم وما يتعلق بهم، وهذا كله من الجهل المُرَكّب، فنعوذ بالله من ذلك! وقد وافق جهلهم ما قلته فيهم من النظام وهي هذه الأبيات [و16أ]:

بهذا العصر أقوامُ ... فمنهم من جفا دينه
ومنهم من أطاع النفـ ... ـس إن النفس ملعونه
لقد زعَمَت جهالتهم ... بما أبدت من الزينه
فقالوا: إن ذا الطاعو ... ن إن كثرت فناجينه
يفر من المكان إذا ... رأى فيه الكرنتينه
لقد كفروا بما اعتقدوا ... وقد ذبحوا بسكينه
ولم يدروا بأنهم ... لقد خلقوا من الطينه
على إبليس قد فاقوا ... وقد غلبوا شياطينه

(1) لفظة ايطالية Quorantine تعني المحجر الصحي الذي يحجز فيه الناس لمراقبتهم صحياً منعاً لانتشار مرض من الأمراض.

(2) في الأصل: يوم.

ثم أن اللّه يسر لنا رجلاً من داخل المدينة لقضاء مصالحنا بسعي أبو الدولة، وهو من أهل القدس، مستقيم هو وعياله في هذه الأسكله المذكورة، فلما سمع بخبرنا حضر عندنا، وصرنا نحط له الفلوس في إناء ملآن خَلاّ لأجل أن يذهب ما عليهما من الطاعون كما هو زعمهم الفاسد، وهو يأخذ الفلوس ويشتري لنا جميع ما نطلبه من سَمْن وارز ولحم وبقسُماط وجبن وخبز وغير ذلك، ثم طلبنا منه خياراً فأتى لنا به، فإذا الواحدة نحو ذراع[1] مصري[2]، وهي كزَند الرجل.

واستقمنا إلى وقت الغروب، ثم نزلنا إلى السفينة، وقد قلتُ من النظام في هذه الجزيرة هذه الأبيات: [و16ب]

جزيرة كثيرة الأشجار غزيرة المياه والأنهار
كبيرة عظيمة مهولة شهيرة رخيصة الأسعار
زهيَّة بهيَّة أنيسة حصينة سليمة الأكدار
فمثل هذى الجزيرة الخضرا التي ما مثلها في سائر الأقطار

[رأس العجوز]

واستقمنا في السفينة حتى طلعت الريح الطيبة، وسرنا معها متوكلين على اللّه إلى أن طلع الفجر، وقد وصلنا إلى محل سمي رأس العجوز.

[دير أندريَه]

ولم نزل سائرين إلى ثاني يوم الظهر، وقد لاح لنا دير على شاطئ البحر في الجزيرة المذكورة يسمى دير أندرِيَه[3]. وكان الماء قد فرغ منا، فتقدمنا من الدير

(1) في الأصل: زراع.

(2) الذراع المصري هو نفسه الذراع الشرعي البالغ 50,3 سم. والتر هنتس: المكاييل والأوزان الإسلامية، ترجمة كامل العسلي، بيروت 1970 ، ص90.

(3) يقع هذا الدير في رأس سانت اندريا، على ساحل البحر، في أقصى الجزء الشرقي من جزيرة قبرس، وهو منسوب إلى سانت أندرو، وهو الرسول اندرياس، ويعد الدير واحداً من

المذكور، وخرجنا إلى البَر، ودخلناه فما وجدنا فيه أحد، وهو كما قال فيه الشاعر هذين البيتين:

كانت خليات نحل وهي عامرة لما خلى نحلها عادت خليات

كأنها اليوم بالسكان ما عمرت أو غال سكانها فصل المنيات

وكان قيّمه لما رأنا طلعنا إلى الدير تركه وانهزم خوفاً منا، فأمَّناه، فحضر عندنا وأحضر لنا الماء، وأوقد النار وطبخ القهوة وشربنا، ثم أحضرنا من السفينة طعاماً، وأكلنا وحمدنا الله تعالى، وصار القيم يخدمنا، وقد حصلت لنا الراحة، فأنشدت من النظام هذه الأبيات: [و17أ]

قم بنا يا من يروم الخمر كي نندب الأظعان في شربٍ بَري

علهم أن يرشفونا جرعة من عتيق الخمر في كأس

خمرة حلت لنا في ديرهم هاتها صِرْفاً وقدِّمها لدي

خمرة مائية بِكريَّة عاذلي عنها كوى قلبي بكي

يا أُهيِّل الدير دوموا في هنا وارثوا إني ميت في وضوئي

أرشفوني جرعة ممزوجة اسكروني اطربوا منّوا علي

أدخلوني ديركم وقت الصفا اسمعوني قولكم : اللّه حي

وكان هناك عين ماء، فتوضأنا منها وغسلنا أيدينا ووجوهنا بالصابون، وحصل لنا النشاط التام، وكانت طائفة السفينة قد ملأت جميع البراميل ماءً، فنزلنا إلى السفينة بعد أن صلينا العصر مع الظهر جمع تقديم مقصورتين.

مراكز حجاج الكنيسة الآرثذوكسية القبرصية، شيد على أنقاض دير قديم، وتوجد تحت الدير آبار مياه يعتقد أنها تابعة لمباني الدير المذكور. وبحسب ما ذكره المؤلف فإن السفينة رست في طوزله ثم انحرفت شرقاً حتى وصلت ديراندرياس ومن هناك دارت من وراء رأس اندرياس ثم مضت شمالاً باتجاه جنوب الأناضول.

دير اندريه في قبرص

وسارت بنا في ريح طيبة إلى أن غبِنا عن جميع البر، وقد انقطعت الريح، واستمرينا على ذلك مدة ثلاثة أيام، وفرغ جميع الماء الذي معنا، ثم من لطف الله أرسل الله ريحاً طيبة فما مضى نحو ساعتين حتى وصلنا ليمان يعني مينه[1]، في جانب جبل شاهق، والبحرية يعهدون فيه ماءً عذباً. وكان الريح قد اشتد وهاج البحر، فأتينا إلى هذا الليمان، وأرست بنا [و17ب] السفينة لأجل الماء، فقلت من النظام هذه الأبيات:

عجائبٌ كيف أبغي الماء من عطش ... والبحر حولي أفدني أيها الرائي

ومنه أعجب إني لا أعيش بلا ... ماء وخوفي أرى في البحر افنائي

أجابني حاذقٌ عن أول وكذا ... عن ثاني بجواب شافيا دائي

قد سال دمعك من البعاد وقد ... جرى فغير طعم البحر والماء

والبحر قد زاد قهراً من تغيّره ... أتاك نعيكَ فاحذر أيها النائي

ثم طلعت الطائفة إلى البر، وملأت البراميل، واستقمنا إلى نصف الليل، وركد البحر، فسرنا حتى أصبح الصباح وتعالت الشمس، فظهر لنا على بعد سفينة

(1) كذا يكتبها المؤلف، يريد: الميناء. وليمان من الفرنسية Leman وتعني ساحل البحر.

أروام[1] سَرّاقين، فصاروا يتبعونا من مكان إلى مكان، ولكن بحمد الله سفينتنا أكثر سيراً[2] من سفينتهم.

ولم نزل على هذه الحالة، وهم في إثرنا، إلى أن صار وقت الغروب، وكانت الريح قد سكنت بالكلية، فأتينا على ليمان لطيف، والسفينة المخذولة في إثرنا، وكان رئيس سفينتنا يعرف بلغة الروم. ولما وصلنا تكلموا مع الريس المذكور وأخبروه أنهم تائهون[3] عن الطريق، وكان ذلك خداعاً منهم. ثم أرسلوا سفينتهم قريباً منا، وصرنا متحذرين منهم، واشهرنا اسلحتنا، وكان في سفينتنا نحو مائتين[4] راكب، فلما رأونا على هذه الحالة أيقنوا أنهم إن يصلونا [و18أ] بسوء لأنهم شرذمة[5] قليلة. وفي ثلث الليل خرجت ريح طيبة فسرنا معها، ولم يتبعونا وقد صرفهم الله منا.

[العلايا]

ولم نزل سائرين حتى بانت لنا مدينة عَلاية[6] على بعد، وقد سكنت الريح، واستقمنا على هذه الحالة ثلاثة أيام والمدينة المذكورة أمامنا، ونحن لا نستطيع الوصول إليها، ولما كانت ليلة اليوم الثالث خرجت علينا أرياح مختلفة تلعب في السفينة لعب الولد في العصفور، فتارة تأتي من يمين السفينة، وتارة من شمالها،

---

(1) الروم هم الترك على مصطلح ذلك العصر، إلا أنه يقصد بهم هنا اليونانيين أو البلقانيين، من رعايا الدولة العثمانية، يؤكد ذلك أنهم كانوا يتكلمون بلغة لم يفهمها غير رئيس السفينة.

(2) يريد : أسرع سيراً.

(3) في الأصل: تائهين.

(4) يريد: مائتي.

(5) في الأصل : شرزمة.

(6) هي العلائية، مدينة وميناء في جنوب الأناضول، في شرقي خليج أنطاليا على البحر المتوسط، ضمها السلطان علاء الدين السلجوقي إلى دولة سلاجقة الروم، سنة 636هـ/1238م وإليه نسبت، وبعد سقوط هذه الدولة آلت إلى امارة تكة التركمانية سنة 692هـ/1293م، ثم ضمها العثمانيون إلى دولتهم. ووصفها ابن بطوطة بأنها «كبيرة على ساحل البحر، يسكنها التركمان، وينزلها تجار مصر واسكندرية والشام وهي كثيرة الخشب ومنها يحمل إلى سائر بلاد مصر، ولها قلعة عجيبة منيعة بناها السلطان المعظم علاء الدين الرومي». معجم البلدان، مادة علايا، وأوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، استانبول 1990، ج2 ص755.

وتارة من خلفها، وتارة من أمامها، فصاحت طائفة السفينة وأيقنا الهلاك، واستمرينا على هذه الحالة نحو ساعتين، فصرتُ ألهَجُ وأتسلى بقول الشاعر[1]:

كن من همومك معرضاً وكل الأمور إلى قضا
وابشر بخير عاجلا تنسى به ما قد مضى
فلرُبَّ أمر مسخط لكن في عواقبه الرِّضا
الله يفعل ما يشا فلا تكن متعرضا

ثم أن الله صرَف عنا ما نحن فيه من الهَم، ولما أصبح الصباح جاءنا ريح خفيفة جداً، وما [أن] صار وقت الظهر حتى وصلنا، وأرست بنا السفينة على المدينة المذكورة[2]، فتقدم إلينا منها رجلان[3] من أتباع ناظر الكرنتينة، فسألناهم عن مدة الكرنتينه[4]، فقالوا: تسعة أيام [و18ب] فعزمنا أن نعمل الكرنتينه فيها، ثم طلبنا من الناظر وَرْديّان[5]، يعني واحد يحرسنا خوفاً من أن نلامس أحداً فيتعلق به الموت، وجعلنا الكرنتينه علينا وعلى السفينة وعلى جميع من فيها. وصرنا كل يوم في الصباح ننزل إلى البر ونستقيم إلى المسي[6] ونرجع إلى السفينة ونبات[7] فيها. وفي أول يوم من أيامها نزل إلى باب المدينة الريس والسيد بكر نسيبه المتقدم ذكره والوَرديّان معهم. وكنا نسمع في فاكهة تسمى الكرز، وهي لا توجد في بلادنا، فأوصيناهم إذا وجدوا منها يحضرون ما تيسر، ولما رجعوا أحضروا لنا احدى عشر أقة[8] وثمن الأقة أربعين مصرية، فأخذنا منها، وأكل معنا جميع من في السفينة الحاضرون، وهي تشبه العنب، ونواتها قد زالت، وعي

(1) هو صفي الدين الحلي.
(2) في الأصل : المذكور.
(3) في الأصل: رجلين.
(4) أي مدة الحجز في المحجر.
(5) الوردي هنا من الوردية وهو مصدر صناعيّ من وَرْد : أي النوبة في العمل أو الحراسة.
(6) يقصد المساء.
(7) يقصد : نبيت.
(8) الأقة وحدة وزن عثمانية تزن 1,2828 كغم.

في غاية الحلاوة واللطافة، ولونها حين النضج كلون الدم، وحين أكلت منها أنشدت ناظماً هذين البيتين:

أكلت فاكهة تسمى لنا كَرَز كأنه من جنان الخلد منقول

أنامل الحُور وياقوت جنتهم أو سال دمعي على خدٍ من اللولو

وهذه المدينة في سفح جبل شاهق، ممتدة من أسفله إلى أعلاه، وجميع بيوتها من الخشب، وعليها ثلاثة أسوار[1] من الحجر وخندقين [و19أ]، وأهلها أتراك، وهم أهل مروءة ودين وعقل، ولهم أطباعٌ حسنة، فمنها أن أسواقهم خارج المدينة، وبيعهم وشراءهم كذلك، وإذا أتاهم غريب لا يُمكنونه من الدخول إليها، بل لهم محلات معدة خارجها، وكذلك العسكر. ومنها أن القاضي والحاكم والمفتي لا يكونون إلاّ من أهلها خوفاً أن يوقع غيرهم الفساد في مدينتهم، ومنها أن الصبي من أهلها إذا بلغ الحلم ولم يزوجه والده لفقره مثلاً، يخرجونه منها إلى الخارج.

وهي رَخيَّة يعيش فيها الفقير، فإن أقة اللحم بأربعين فضة، وفيها الليمون الحامض وغيره من الفواكه، وقد اتفق لنا أننا أخذنا ثلاثة عشر ليمونة بثمان من الفضة.

ولما كملت مدة الكرنتينه في اليوم التاسع، دخلنا سوق المدينة واستقمنا فيه إلى المساء، ورجعنا إلى السفينة، وبتنا تلك الليلة، ولما أصبح الصباح أخذنا جميع ما معنا من الثياب الوسخة، وخرجنا إلى البر، وأتينا إلى السوق، واشترينا الصابون والحطب، واستعرنا من بعض أهل السوق دستاً[2] من النحاس، وأتينا إلى عين ماء تجري، وأوقدنا النار وغسلنا ثيابنا، ثم رجعنا إلى السفينة وبتنا تلك الليلة. وفي الصباح نزلنا إلى البر، وأخرجنا تذاكر الطريق التي كانت معنا ودفعناهم إلى ناظر الكرنتينه، فوضع ختمه فيها، [و19ب] بعد أن أخذ كل شخص منا تسعة وثلاثين غرشاً، ثم قضينا لنا بعض مصالح، ونزلنا إلى السفينة، وعزمنا على السير في

(1) في الأصل: أصوار.

(2) لفظة فارسية عربت قديماً بالطست، وتسمى في العراق وغيره: الطشت..

الليل. وكانت مدة إقامتنا في علايا أحد عشر يوماً[1]. ثم قلت فيها من النظام هذين البيتين:

لقد صعدت إلى العليا علايا بها الاصرار تبدو كالثنايا

وقد نبعت بها عين المروة ومنها أهلها ملأوا الروايا

(1) في الأصل : إحدى عشر يوم.

[أضالية]

ثم استقمنا في السفينة إلى طلوع الفجر، وقد خرجت الريح فسرنا معها قاصدين مدينة أضالية[1]، وقد طابت لنا الريح، واستمر معنا إلى وقت المساء، وبتنا تلك الليلة وما [أن] أصبحنا إلاّ والمدينة أمامنا، وقد عزمنا على أن نكمل سفرنا في البر، ولما رست السفينة على المدينة المذكورة ألبس جناب الأفندي إلى رئيس السفينة بنشا[2] يساوي ثلاثمائة غرش، وأعطى جميع طائفة السفينة كل واحد على قدر خدمته. وقد حضر عندنا الحاج حسين الفقاعي من تجار القدس، والسيد محمد الكلحه من تجار يافه[3]، وهم مشتركون وبضاعتهم صابون، فأخذونا معهم إلى الخان الذي هم نازلون فيه، وأبقينا جميع حوائجنا في السفينة، ثم طبخوا لنا اللحم والأرز والبامية والبيدنجان، فأكلنا وحمدنا الله تعالى. فبينما نحن كذلك إذ حضر [و20أ] عندنا رئيس السفينة، وهو صايح، فسألناه ما الخبر، فأخبر أنهم يريدون أن يُكرتنوا[4] على السفينة خمسة عشر يوماً[5]، وكان السبب في ذلك أن في جانب سفينتنا سفن غير مُكرتَن عليهم، فوقع منهم حبل على سفينتنا، فحصل ما حصل، فقام جناب الأفندي وذهب إلى ناظر الكرنتينه وصَرَفها الله على يديه أحسن مَصرَف، ثم في ثاني يوم ذهبنا إلى الحمام واغتسلنا، وقد حصل لنا النشاط التام، ولله دَرّ القائل[6] حيث أشار للحمام بهذين البيتين:

---

(1) مدينة وميناء على البحر المتوسط في جنوب الأناضول، ضمها السلاجقة إلى دولتهم في سنة 603هـ/1293م، وشيدوا فيها أهم معالمها، ثم آلت إلى امارة تكه التركمانية قبل أن تضمها الدولة العثمانية إلى ممتلكاتها. سنة 1391م نوه بها ياقوت ووصفها بأنها «حصن على شط البحر واسع الرستاق كثير الأهل.. وبها مسجد جامع ومدرسة». ووصفها ابن بطوطة بأنها «من أحسن المدن متناهية في اتساع الساحة والفخامة، أجمل ما يرى من البلاد وأكثره عمارة وأحسنه ترتيباً». رحلة ج2 ص161. وهي بالتركية أداليا، وتسمى اليوم أنطاليا. وينظر: أوزتونا ج2 ص745–746.

(2) واضح من سياق العبارة أن البنش نوع من الأردية، ولكن نتبين طبيعته وشكله.

(3) آل الكلحة أسرة قديمة في يافا، ولها انتشار في غيرها من المدن الفلسطينية.

(4) اشتق الفعل (كرتن) من اسم الكرنتينة، يريد حجز السفينة لأغراض الحجر الصحي.

(5) في الأصل: يوم.

(6) البيتان في ألف ليلة وليلة غير منسوبين لأحد.

وبيت له من جَلمد الصخر أزهار أنيق إذا ما أضرمت حوله النارُ

تراه جحيماً وهو في الحق جنة وأكثر ما فيها شموس وأقمار

ميناء في أضاليا

بقايا سور أضاليا

[الطريق إلى كوتاهية]

وفي ثاني يوم استأجرنا تسعة دواب إلى مدينة كتاهية، ومسافتها منا نحو ثمانية أيام للمُجد، وكل دابة أجرتها ثمانين غرش[1]، وفي ثالث يوم اشترينا جميع

(1) يريد: ثمانون غرشاً.

ما يلزم لنا في سفر البر. وفي اليوم الرابع حضرت الدواب، وكان ذلك الوقت وقت الظهر، وكان هذا اليوم شديد الحر، خصوصاً هذه المدينة، فمن شدة حرّها أن غالب أهلها في فصل الصيف يخرجون إلى محل فيه بساتين ومياه وأنهار، وهو معتدل بين الحر والبرد، وهو عن هذه المدينة إثني عشر ساعة. وفي فصل الشتاء يرجعون إليها. ثم قلت فيها من النظام هذه الأبيات [و20ب]:

مدينة كأنها من مُدن دار هاويه
دخلتها مناد ها وْم اقرأوا كتابيه
إني ظننت أنها دار السَّعير الحاميه
جهنم ثم لظى ثم الجحيم الداهيه
ثم الحطيم سقر لقد حوت أضاليه
قولوا لمن يمدحها خوفاً من الزبانية
كلا لئن لم تنته لنسفها بالناصية[1]

ثم أخرجنا حملها على ظهور الدواب، وركبنا وسرنا بعد أن جمعنا العصر مع الظهر جمع تقديم مقصورين. ولم نزل سائرين نحو ساعتين فأتينا إلى قهوة في الطريق، واسترحنا نحو ساعة.

ولم نزل سائرين حتى صار وقت المغرب، فنوينا على تأخيره مع العشاء، وسرنا حتى صار ثلث الليل، وقد وصلنا إلى خان كبير، فنزلنا هناك، وأوقدنا النار، وطبخنا القهوة وشربنا. ثم اشترينا خياراً[2] من الخانجي[3]، وأخرجنا من الزاد الذي معنا وأكلنا وحمدنا الله تعالى، ثم توضأنا وصلينا المغرب مع العشاء جمع تأخير، ثم أخذنا مضاجعنا للراحة، ونمنا مقدار ساعتين، ولما انتبهنا [و21أ] توضأنا والفجر لم يطلع، ثم ركبنا وسرنا، ولم نزل سائرين حتى طلع، فأنشدنت ناظماً هذين البيتين:

---

(1) كذا في الأصل.
(2) في الأصل: خيار.
(3) القيم على الخان.

خانٌ به الأنس للأغراب مُنجَبلٌ إذا الغريب أتى يأوي ذا الخان

كذاك يأوي لمن قد هام معتسفاً في حب قوم له في الحب قد خانوا

ولم نزل سائرين حتى طلع الفجر، فنزلنا عن الدواب، وصلينا الفجر، وركبنا وسرنا مُجدّين إلى ثلث النهار، وقد اشتد علينا الحر، فوجدنا قهوة، فنزلنا فيها وشربنا القهوة، فأنشدت فيها ناظماً هذه الأبيات:

شربنا قهوةً دارت علينا بهذا الوقت في قدح اللجَيْن

سواد في بياض مثل خال بصحن الخد أو فوق الجبين

سواد في بياض مثل عين تغامزني فقلت: أتغمزيني

لهذا ذوق تحس به ضلوعي جميعاً لو شربنا كل حين

ثم نمنا مقدار ساعتين، وحين انتبهنا توضّأنا، وكان وقت الظهر قد حضر، فصلينا العصر مع الظهر جمع تقديم، ثم أقمنا ما تيسر، وحمدنا الله، وركبنا وسرنا إلى وقت الإصفرار، وقد وصلنا إلى بساتين أضالية المتقدم ذكرها التي يخرجون إليها أهل أضالية في فصل الصيف، فوجدنا بين البساتين بيوت وأسواق وجوامع وخانات كالمدينة، فنزلنا في الخان، واشترينا اللحم والأرز [و21ب] والسمن والبيدنجان، وطبخنا وأكلنا وحمدنا الله. ثم أخذنا مضاجعنا للنوم بعد أن صلينا ما علينا من الفروض.

ولما أصبح الصباح توضأنا من نهر كبير هناك وصلينا الفجر. ولما طلعت الشمس أقبلت أصحاب البساتين بأنواع الفواكه، وكانت رخيصة، فاشترينا أقة التفاح بأربع مصاري[1]، ثم أكلنا من الفواكه ما فيه الكفاية، وحملنا معنا منها، وركبنا وسرنا وإذا السحاب قد امتد، وصار المطر ينزل علينا حتى ابتلت ثيابنا، وما زالت تمطر وتصحو إلى العصر.

(1) المصرية، وجمعها مصاري ومصريات، اسم لضرب من النقود الفضية كانت تضرب في مصر فنسبت إليها، وجرى تداولها في بلاد الشام، ثم أطلقها الشاميون على النقود عامة.

ووصلنا إلى أرض سهلة فيها عين ماء فنزلنا فيها والمطر ينزل، وكان معنا بساط كبير فربطناه وعملناه كالخيمة، ثم جمعنا الحطب وأوقدنا النار، وطبخنا القهوة وشربنا، ثم توضأنا وصلينا ما علينا من الفروض، ثم أخرجنا من الزاد ما تيسَّر، وأكلنا وحمدنا الله، وبتنا تلك الليلة بعد أن انقسمنا قسمين، قسم ينام وقسم يحرس، ولما أصبح الصباح توضأنا وصلينا الفجر وركبنا، فأنشدت قول الشاعر هذين البيتين:

نزلنا هاهنا ثم ارتحلنا كذا الدنيا نزول وارتحال

يظن المرء في الدنيا خلود خلود المرء في الدنيا محال

[و22أ]

ثم سرنا إلى قبيل الظهر، فوجدنا أرضاً خضراء وفيها عين ماء، فنزلنا فيها لأجل الراحة، فرأينا على بعد يُرُك[1]، يعني بيوت إلى التركمان، وهي بعضها من القش، وبعضها من الشعر، فأرسلنا القاطرجي، أي صاحب الدواب، إلى ذلك اليرك ليحضر لنا لبنا، فغاب عنا قليلاً وحضر لنا اللبن، وكان معنا السمن والسكر، فعملنا المفروكة، وأكلنا وحمدنا الله، ثم أخذنا مضاجعنا للراحة نحو ساعتين، ولما انتبهنا من النوم حضر عندنا اثنان من اليُرُك المذكور بقيافة لا تليق[2]، فتجد سراويلهما يستران من تحت السرة إلى فوق الركبة، فجلسا فأسقيناهما القهوة، ثم سألانا بلغة التركية: من أي البلاد أنتم؟ فأخبرناهما بحالنا، فقالا: نحن لنا على أهل القدس دم! فسألناهما عن سبب ذلك، فقالا: إنا خرجنا مع العرض الهميوني[3] في سنة الفرنساوي[4]، ولما حضرنا إلى القدس

(1) اليُرُك، قبائل غير مستقرة كانت في الأصل تؤدي خدمات خاصة للدولة، وهي تعيش على تربية الماشية، وتدفع الضرائب عن مراعيها وعلى أغنامها إلى بك المقاطعة التي تنزل فيها، وقد شجعت السلطات استقرارها بأن حددت أماكن إقامتها، وكان لها نوع من المعتقدات المنحدرة من أسلافهم الغزاة الذين وفدوا إلى الأناضول في عهود انسياح الترك الأولى إلى الأناضول، وقد ظلوا يسمون حتى وقت متأخر بالتركمان، كما هو الحال للرحالة هنا. جب وبوون: المجتمع الإسلامي والغرب، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى، القاهرة 1971، ج2 ص81.

(2) في الأصل: لا تليف.

(3) العرض هنا الجيش، والهميوني: السلطاني، ويقصد به الجيش العثماني الذي توجه لاستعادة مصر من الاحتلال الفرنسي.

(4) هي سنة استعادة العثمانيين لمصر سنة 1215هـ/1801م.

صارت بغضاء بيننا وبين أهلها، فنصبوا علينا، وقتلوا منا اثنين أو ثلاثة، فلما سمعنا هذا الخبر خفنا على أنفسنا، فقلت من النظام مستغيثاً هذه الأبيات

إلهى لست تترك عبد باب بأرض التركمان ذي الاعتداء
لقد زعموا بما أبدو اعتداء وأنت الملجأ الشافي لدائي
فنرجوا دفعهم عنا سريعاً إليك المشتكى فاقبل دعائي

[و22ب]

ثم إنهم جلسوا عندنا قليلا، وانصرفوا إلى مساكنهم، فحالاً بادرنا بالتحميل وركبنا وسرنا، وقد صرفهم الله عنا، وما زلنا نجد السير إلى وقت الاصفرار، وقد وصلنا إلى يُرُك كبير يسمى بإيله بركات[1]، فنزلنا بجانب عين ماء هناك، وتوضأنا وصلينا العصر والظهر جمع تأخير مقصورين، ثم جمعنا الحطب وأوقدنا النار وطبخنا الارز، واشترينا اللبن وأكلنا، وحمدنا الله. وهذا المحل الذي نزلناه شديد البرد حتى أن الشخص لا يستطيع أن يعد عشرة ويده في الماء لشدة البرد، وهذا في فصل الصيف فما بالك في فصل الشتاء.

ثم بتنا تلك الليلة إلى أن أصبح الصباح، فقمنا وتوضأنا وصلينا الفجر، وبعد الصلاة حضر عندنا رجل من التركمان ومعه صحنين من القيمق[2]، فاشتريناهم منه، ووضعنا عليهم السكر، وأكلنا وحمدنا الله.

[البُردُل]

ثم ركبنا وسرنا إلى قبيل الظهر، وقد وصلنا إلى مدينة كبيرة تسمى البُرْدُل[3]، بضم الموحدة وسكون الراء المهملة وضم الدال المهملة، فدخلناها ونزلنا في خان من خاناتها، وقضينا لنا بعض مصالح. وهذه المدينة غزيرة المياه، كثيرة الفواكه، رخيصة الأسعار، فاستمرينا فيها إلى قبيل العصر.

---

(1) يسمي الرحالة هنا قرية بذاتها، كهذه القرية، يركاً، مما يدل على أن هذه القبائل أصبحت في عصره أكثر استقرارا وإلتصاقاً بالأرض مما كانت عليه من قبل.

(2) لفظة تركية تعني القشدة، وما زالت تستعمل في العراق والخليج العربي باسم (قيمر).

(3) هي المعروفة اليوم باسم بردر Burdur وتقع على الشاطئ الشرقي لبحيرة صغيرة باسمها، على الطريق العام بين أضاليا (أنطاليا) إلى كوتاهية.

مبنى قديم في البُردُل

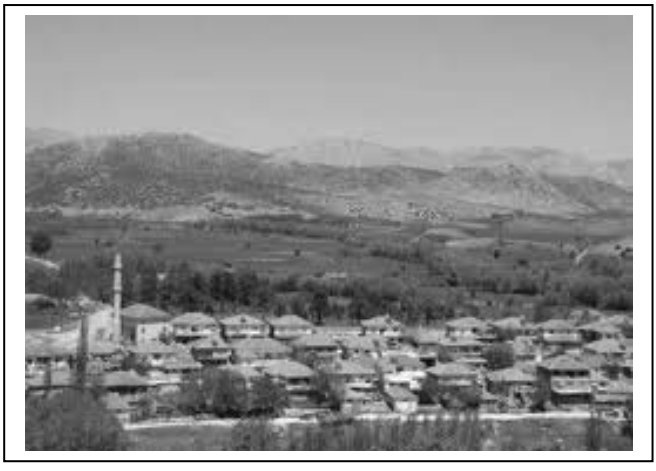

جانب من البُردُل

ثم ركبنا وسرنا، بعد أن صلينا العصر مع الظهر من جمع تقديم، وأنشدت ناظماً هذه الأبيات: [و23أ]

مدينة مثل دمشق الشام ... في الماء والهواء والزمام[1]

بها الجمال والكمال والتقى ... وعيشها صائر من الأوهام

عرّج ومل نحو التي قد سميت ... ببُردُل دامت مدى الأعوام

(1) الزمام هنا: العشب.

ولما خرجنا إلى خارج المدينة، قابلتنا بحيرة ماؤها عذب، مسافة طولها نحو يوم وعرضها نحو نصف يوم، فسرنا على شاطئها إلى ثلث الليل، ثم نزلنا وربطنا البساط المذكور وجعلناه كالخيمة، ثم توضأنا وصلينا المغرب مع العشاء جمع تأخير، وكان قد تراكم عليَّ النعاس، فأخذت مضجعي للنوم من غير أكل وشرب إلى الصباح، ولما انتبهنا توضأنا وصلينا الفجر، ثم ركبنا وسرنا إلى وقت الظهر، وقد وصلنا إلى كِيو[1]، بكسر الكاف، أي قرية، فنزلنا على نهر ماء يجري بجانبها، واشترينا منها اللحم وطبخنا اللحم والأرز، وأكلنا وحمدنا الله، ثم توضأنا وصلينا العصر مع الظهر جمع تقديم.

ثم ركبنا وسرنا إلى وقت الاصفرار، فنزلنا على نهر كبير يخرج من جبل، ويجري في أرض مخضرة النبات، ففرحنا بذلك وحصل لنا السرور، وانشرحت صدورنا، وهي كما قال الشاعر فيها هذا البيت[2]:

هذه روضة وهذا غديرُ مجلسٌ طيبٌ وربٌ غفورُ

[و23ب] فنزلنا وأوقدنا النار وطبخنا القهوة وشربنا، ثم حضر رجل يحرس بستانا ومعه خيار، فاشترينا منه، ثم أخبرنا نصيحة أن نرحل من هذا الموضع وإلاّ نرى العذاب في هذه الليلة من البعوض، فما قبلنا لنصيحته، فصار حال هذا الحارس كحال الشاعر القائل هذين البيتين[3]:

نصحتُ فلم أفلح وفحشوا فأفلحوا فأوقفني نصحي بدار هوان

فإن شئت لم أنصح وإن مت فابغ لي دون النصح من هذين بكل لسان

ثم قلنا له نرتفع قليلا ونبتعد عن الماء فلا يصل إلينا البعوض، ثم ارتفعنا عن الماء، وأخرجنا ما كان معنا من المنزل الذي قبله، وأخذنا في الطبخ، ولما غربت الشمس أقبل علينا ملك البعوض في جنود لا تحصى وجيوش لا تستقصى، وصار

(1) الأصح أن تكتب: كوي.

(2) البيت لداود بن رزين مولى عبد القيس كالآتي: زمن طيب ويوم مطير هذه روضة وهذا غدير. كما في وفيات الأعيان.

(3) البيتان في كتاب ألف ليلة وليلة ولم ينسبا إلى أحد.

يجاهد فينا جهاد العمالقة، ويدخل في العيون والآذان والمناخير والأفواه، ويدخل بين الأسنان، وصرنا متحيرين وقد اشتد الظلام، وصار يأتينا بأنغام مطربة، وبتنا تلك الليلة نرعى النجوم إلى الصباح، وكانت هذه الليلة كما قال الشاعر:

وكم ليلة بتُّ في كُربة ... يكاد الرضيع لها أن يشيب
فما أصبح الصبح إلاّ أتى ... من اللّه نصر وفتح قريب

ثم توضأنا وصلينا الفجر وركبنا، فأنشدت ناظماً هذه الأبيات: [و24أ]

بعوضٌ جاء في غَسَق الظلام ... وأظهر كيده قبل الكلام
ونادى يا آل بعوض هلموا ... إلى شرب الدماء قبل المنام
ومن كل الجهات أتوا وغنوا ... بأنغام ولذع بالسهام
وداروا حولنا وسعوا علينا ... وقد سكروا وليس من المدام
فمفتيهم لقد أفتى بقتلي ... وأبرز نصّه مثل الحسام
كذا القاضي لقد نادى هلموا ... لنهش اللحم عن تلك العظام
أمير الجيش قال لهم هنيئاً ... لقد طابت لكم دار السلام
ألا ليلةً بتنا جميعاً ... نراعي النجم من ذا الانتقام
فكانت ليلة ظلما وطالت ... وقد فقد الكرى في ذا المقام
فيا صاح اعتبر في صنع ربي ... بأضعف خلقه أفنى احترام[1]

ولم نزل سائرين إلى أن حمى النهار، فأتينا إلى عين ماء ونزلنا، ولم يكن عنده أشجار، فرفعنا البساط كالخيمة وجلسنا تحته، ثم أخرجنا من الزاد ما تيّسر، وأكلنا وحمدنا اللّه، ثم نمنا مقدار ساعتين، ولما انتبهنا توضأنا وصلينا العصر مع الظهر جمع تقديم مقصورَين.

ثم ركبنا وسرنا مجدين إلى وقت الغروب، وقد وصلنا إلى قرية فيها عين ماء، فنزلنا بعيداً عن الماء خوفاً من البعوض، واشترينا [و24ب] اللبن وبيض الدجاج،

(1) هذه الكلمة غير واضحة في الأصل.

وأكلنا وحمدنا الله، ثم صلينا العشاء مع المغرب جمع تقديم، وأخذنا مضاجعنا للنوم إلى الصباح، ولما انتبهنا توضأنا وصلينا الفجر، ثم ركبنا فأنشدت ناظماً هذين البيتين:

نزلنا بأرض نستريح مساءها ولما أضاء الفجر سرنا لغيرها

كذلك دنيا تزول ورحلة ونحن اغتراراً لا نرى جد سيرها

[السندقلي]

ثم سرنا إلى قبيل الظهر، وقد وصلنا إلى السَّندقلي[1]، بتشديد السين المهملة مفتوحة وسكون النون وضم الدال المهملة وسكون القاف، وهي قصبة كاللّد[2] فدخلناها ونزلنا في الخان، فحضر عندنا رجل مصري اسمه الحاج محمد الفيُّومي، كان قد سكن القدس مدة ثم جاء إلى هذه البلدة وسكن فيها هو وعياله، فسلم علينا وصار يقضي لنا مصالحنا، ثم دفعنا له الفلوس لأجل أن يشتري لنا اللحم والارز والسَّمن، ويطبخه لنا في بيته، فغاب عنا نحو ساعتين، ثم أتانا بالطعام، فأكلنا وحمدنا الله، ثم ذهبنا إلى الجامع وتوضأنا [وصلينا] العصر مع الظهر جمع تقديم.

---

(1) وتكتب أيضاً: صندقلي Sandikli ، بلدة كانت في العصر العثماني مركز قضاء في لواء قره حصار من ولاية خداوندكار. قاموس الأعلام ص393. وهي تشتهر بالينابيع الساخنة ومحاجر الرخام.

(2) اللد Lydda مدينة في فلسطين تقع على بعد 16 كم إلى الجنوب الشرقي من يافا، و5 كم إلى الشمال الشرقي من الرملة، أسسها الكنعانيون في الألف الخامس قبل الميلاد، واتخذت اسماء عدة في العصور التالية، وزادت أهميتها حتى صارت عاصمة لفلسطين، ولبثت كذلك في العهد الإسلامي الأول، حتى انشاء الرملة سنة 715م واتخاذها عاصمة جديدة بدلها، احتلها الصليبيون سنة 492هـ/ 1099م ثم استعادها السلطان المظفر بيبرس سنة 685هـ/ 1287م، وأصبحت في العصر العثماني قرية تابعة لقضاء الرملة. ويُذكر أن اللد كانت تضم كنيسة اسست سنة 310م في الأقل، حين كانت المدينة مركزاً لإبرشية باسم القديس جورج، وأن بقاياها لا تزال مدفونة تحت الأرض. لوحات من القرن التاسع عشر ص145.

مياه معدنية في صندقلي

ثم ركبنا وسرنا إلى وقت الغروب، وقد وصلنا إلى قرية في جانب جبل وعندها عين ماء، ونزلنا في محل يسمى أوضه صاحبي[1]، وهذا المحل معد لمار الطريق، فإذا مر المسافر [و25أ] عنده وكان تعبانا، ينزل فيه ويشرب القهوة، وإذا طلب شيئاً من الطعام يأتون به، فإذا أراد الانصراف دفع لهم ما تيسر من الفلوس على قدر مروءته، وجميع قرايا بلاد الترك التي تكون على قارعة الطريق فيها محلات مثل هذا المحل.

ثم أوقدنا النار وطبخنا الأرز وأكلنا وحمدنا الله، وكان وقت العشاء قد حضر، فتوضأنا وصلينا المغرب مع العشاء جمع تأخير، والعشاء مقصورة، وكان واقفاً بعض من أهل القرية الأتراك ينظرون إلى صلاتنا، فأنكروا حالنا، وصاروا يتهامسون ويتخافتون ويتسارون مع بعضهم بعضاً لجهلهم المركب، كيف لا وقصر الصلاة في السفر الطويل معلوم من الدين بالضرورة، ومجمع عليه، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ثم بتنا تلك الليلة إلى الصباح، ولما انتبهنا توضأنا وصلينا الفجر وركبنا، فأنشدت نظماً هذين البيتين:

---

(1) المعنى الحرفي للكلمة: صاحب الحجرة أو الغرفة.

أتينا قرية عند المساء نروم فيها لنا طبخ العشاء

وأضه صاحبي فيها نزلنا وبتناها بأنس مع صفاء

ثم سرنا إلى قبيل الظهر، وقد وصلنا قرية في سهل واسع، فنزلنا وأوقدنا النار، وطبخنا الرز واللحم، واشترينا اللبن، وأكلنا وحمدنا الله تعالى، وأردنا النوم، وكان بجانبنا نعش لنقل الأموات، [و25ب] فتذكرت قول الشاعر حيث قال عن لسان حاله هذين البيتين:

أنظر إليّ بعقلك أنا المهيأ لنقلك

أنا سرير المنايا كم سار مثلي لمثلك

ثم نمنا مقدار ساعتين، ولما انتبهنا توضأنا وصلينا ما علينا من الفروض، وركبنا وسرنا حتى وصلنا إلى قرية كبيرة، ونزلنا في أوضه صاحبي المُعَد للمسافرين، ثم طبخنا وأكلنا والحمد لله، ثم صلينا ما علينا من الفروض، ونمنا إلى الصباح، ولما انتبهنا توضأنا وصلينا الفجر، وركبنا وسرنا، ولم نزل سائرين إلى قبيل الظهر، وقد وصلنا إلى قرية عامرة، فنزلنا في أوضه صاحبي، وأوقدنا النار وطبخنا وأكلنا وحمدنا الله تعالى، ثم نمنا مقدار ساعة. ولما انتبهنا توضأنا وصلينا العصر مع الظهر جمع تقديم، ثم أخذنا في أهبة الركوب وإذا بالحاج محمد الفيومي المتقدم ذكره الذي وجدناه في قصبة السّندقلي قد حضر لأنه أوعدنا أن يلحقنا بعد يوم أو يومين.

ثم ركبنا وسرنا جميعاً حتى أبعدنا عن القرية، فطلع علينا جراد مثل المطر، فمنه من هو متعلق بالأشجار، ومنه من هو راقد على الأرض كأنما الحجّاج قد وضعت أثقالهم لأجل الراحة، ومنه من هو متعلق بالزروع، كما قال الشاعر[1] هذين البيتين: [و26أ]:

هب الجراد على زرعي فقلت له ارحل عن الزرع لا تشتغل بإفساد[2]

فقال خطب منهم فوق سنبلة[1] إنا على سفر لابد من زاد

(1) البيتان رواهما الأصمعي عن بعض الأعراب، ولم يسمه،

(2) أصل العجز: ألم بخير ولا تلمم بإفساد.

وقلت فيه من النظام هذه الأبيات:

جرى جراد جرى دمعي برؤياه مفارق مثلنا يشكو لمولاه
لما رآنا أتى يشكو مواجعه من الفراق أغاث اللّٰه شكواه
وقال بلسان الحال كل فتى يشكوك غربته أكرم لمثواه
إن الغريب خليل حيث كان متى رأى غريب ديار قام حيَّاه
فقلت بأذى الجناحين الذين بهم تلفاً جميع الذي كنت تهواه
أتدَّعي الذل مع هذا فكيف أنا لو كان منه كنت أرعاه

ثم سرنا ساعة حتى مرر[نا] عن[2] جميع الجراد.

[الدَرَوند]

ولم نزل مُجدّين إلى المساء، وقد أتينا إلى محل يسمى الدَرَوَند[3]، فيه نحو خمسة من العسكر يحرسون الطريق خوفاً من القطاع، فنزلنا عندهم، ولم يكن في ذلك المحل ماء، وقد تحققنا عدمه إلاّ للشرب، فتيممنا وصلينا المغرب وجمعنا معه العشاء مقصورة، ثم طبخنا وأكلنا وحمدنا اللّٰه تعالى، وبتنا تلك الليلة إلى الصباح، ولما انتبهنا تيممنا وصلينا الفجر، ثم ركبنا وسرنا، ولما اتضح النهار نزل علينا المطر، حتى بَلَّ ثيابنا، ولم نزل سائرين والمطر ينزل إلى قبيل الظهر، وقد أتينا إلى نهر كبير، وعليه جسر [و26ب] منيع نحو عشر قناطر، والماء يجري من بعض القناطر، وهذا النهر كأنه النيل، فنزلنا هناك وقد ازداد نزول المطر علينا، فدخلنا تحت قنطرة من قناطر الجسر التي لم يجري فيها الماء، وأوقدنا النار، ثم أكلنا من الزاد ما تيسر، وطبخنا القهوة وشربنا، واستمرينا إلى أن انقطع نزول المطر، وهذا النهر يسيح على الأرض ولا ينتفع بمائه أحد، حيث أنه لم يكن عنده سكان، فأنشدت عنده ناظماً هذه الأبيات:

---

(1) أصل الصدر: فقال منهم زعيم فوق سنبلة.

(2) يريد: مررنا على، أو مر عنا.

(3) محطة طريق أشار إليها طه الباليساني في رحلته في طريقه من أزنيق إلى بلدة سماها قرضلي، وهي قرطل كما سيكتبها المؤلف فيما يلي..

عجبت لبقعة لا خلق فيها وفيها الماء يجري كالزلال
كمثل النيل نهرٌ سال يجري بلا نفع يسيح على الرمال
وبعض المدن ضاق الماء فيها كقد من الله زاهي الجمال
فليس سوى الشتاء لها مياه لحكمته تبارك ذو الجلال

وأجاد من قال هذين البيتين[1]:

تموت الأسد في الغابات جوعاً ولحم الطير يرمى للكلاب[2]
وخنزير ينام على سرير[3] وذو فضل ينام على التراب[4]

[كُتاهية]

ثم ركبنا وسرنا نحو ساعة ونصف، فبانت لنا مدينة كُتاهية[5] المتقدم ذكرها، ولما دنونا منها تعارضنا[6] شخص من أهل الكرنتينه، فأخرجنا له التذاكر، ولما قرأها لم يتعرض لنا بشيء، فدخلنا المدينة وأتينا إلى [و27أ] خان من خانات المدينة، واستأجرنا أوضة، ووضعنا حوائجنا فيها، ثم اشترينا اللحم، وطبخنا معه الأرز، وأكلنا وحمدنا الله تعالى، وبتنا تلك الليلة في غاية الراحة، وفي ثاني يوم ذهبنا إلى الحمام، وحصل لنا النشاط التام، وفي ثالث يوم حضر عندنا رجل مكاري من أهل دمشق الشام، مراده التوجه إلى الآستانة، فاستأجرنا منه تسعة

---

(1) البيتان للإمام الشافعي.

(2) أصل العجز: ولحم الضأن تأكله الكلاب.

(3) أصل الصدر: وعبد قد ينام على حرير.

(4) أصل العجز: وذو نسب مفارشه التراب.

(5) مدينة تقع في غرب الأناضول، عرفها العرب باسم قطية، وكلا من الإسمين مأخوذ من أسمها القديم كوتيوم Cotyaeum ضمها العثمانيون إلى دولتهم سنة 779هـ/1378م واتخذها تيمور لنك قاعدة لعملياته العسكرية في الأناضول . فيها مسجد جامع بني على الطراز السلجوقي، وحمام تركي يتصل بسوقها، وسوق للخزف الذي اشتهرت به، وتحيط بمعظمها الغابات. ومما تضمه دار سكنى الرحالة التركي الشهير أوليا جلبي، وهو على الطراز السلجوقي أيضاً . أوزتونا ج2 ص736-737.

(6) يريد : اعترضنا .

تسعة دواب، وفي اليوم الرابع أخذنا ما نحتاج إليه، ثم ركبنا وسرنا، وكان في صحبتنا رجل من تجار دمشق ومعه ولده، وهو – أعني الولد- في غاية المرض، واستمرينا نجد السير إلى الظهر، فأتينا على عين ماء تجري، ونزلنا هناك، وأوقدنا النار وطبخنا القهوة، وشربنا وركبنا وسرنا إلى وقت العصر.

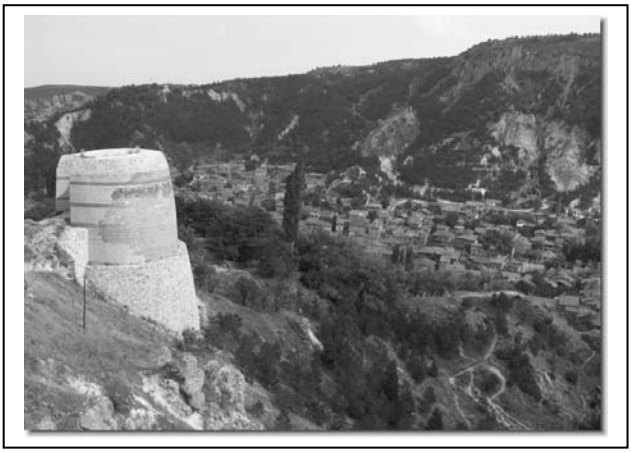

كوتاهية

وقد وصلنا إلى قرية صغيرة، فنزلنا في أوضه صاحبي، ثم توضأنا وصلينا الظهر مع العصر جمع تأخير، ثم أوقدنا النار وطبخنا الارز والفول الأخضر، وأكلنا وحمدنا اللّه تعالى، ثم بتنا تلك الليلة إلى الصباح، ولما انتبهنا وصلينا الفجر، ثم ركبنا وسرنا إلى وقت الزوال، فأتينا على ماء يجري وأشجار، فنزلنا وأوقدنا النار وطبخنا القهوة، ثم أكلنا ما تيسر وأخذنا مضاجعنا للنوم مقدار ساعة من الزمان، ولما انتبهنا توضأنا وصلينا العصر مع الظهر جمع تقديم، ثم ركبنا وسرنا، ولم نزل سائرين [و27ب] إلى وقت الغروب، وقد وصلنا إلى واد ظريف لطيف كثير الأشجار، وفيه نهر كبير يدير أرحية نحو العشرة، وماؤه عذب، وهذا الوادي كما قال في مثله الشاعر[1] هذه الأبيات:

(1) الأبيات للشاعر أحمد بن يوسف المنازي المتوفى سنة 437هـ، وتنسب إيضاً إلى حمدونة بنت المؤدب العوفية. ينظر محمد بن شاكر الكتبي: فوات الوفيات ج1 ص394 وابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة ص255.

وقاني لفحة الرمضاء واد[1] رقاه منابت الفيض العميم[2]

نزلنا دوحه فحنا علينا[3] حنو المرضعات على الفطيم

وارشفنا على طمأ زلالا ألذ من المدامة للنديم

يصد الشمس أنى واجهتنا فيحجبها ويأذن للنسيم

يروع حصاه حالية العذارى فتلمس جانب الدر النظيم[4]

وكما قال الآخر:

واد ترنم طير وغديره يشتاقه الولهان في الأسحار

فكأنه الفردوس في أكنافه ظل وفاكهة ونهر جاري

فنزلنا على شاطئ النهر، وجمعنا ما تيسر من الحطب، وأوقدنا النار، وطبخنا الطعام، وأكلنا وحمدنا الله، ثم صلينا ما علينا من الفروض، وبتنا تلك الليلة إلى الصباح، وكان ولد التاجر الدمشقي ثقل عليه المرض، فاستأجر له والده عرابايةً[5] تسير على أعجال تسحبها البقر، وكان في حالة النزاع. ثم ركبنا وسرنا نحو ساعتين، وإذا بالتاجر صار يبكي، فعلمنا أن ولده قد توفي إلى رحمة الله تعالى، فصرنا نُعزّي والده ونسليه [و28أ] بمصيبتنا بموت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فانظر يا أخي واعتبر بمثل هذا واسمع ما قاله الشاعر[6]:

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

وقال الإمام أبو بكر الصديق رضي الله عنه:

الموت باب وكل الناس داخله يا ليت شعري بعد الموت ما الدار

---

(1) في الأصل: وقانا

(2) في الأصل: سقاه مضاعف الغيث العميم.

(3) في الأصل: حللنا دوحه.

(4) في الأصل: العقد النظيم.

(5) يريد: عربة.

(6) البيت لأبي ذؤيب الهذلي المتوفى سنة 648هـ.

ولنذكر ما قاله كل إمام همام من الخلفاء الأربعة رضي الله عنهم على سبيل الاستطراد، قال الإمام عمر بن الخطاب رضي الله عنه كأنه مجارياً له بهذا البيت:

الدار دار خيم إن عملت بها يرضى الله وإن خالفت فالنار

وقال الإمام عثمان بن عفان رضي الله عنه:

هما محلان ما للمرء غيرهما فاختر لنفسك أي الدار تختار

وقال الإمام علي رضي الله عنه وكرم الله وجهه:

ما للعباد سوى الفردوس منزلة وإن هفا هفوة فالرب غفار

[البازرجك]

ثم سرنا نحو ساعة، وقد وصلنا إلى قرية كبيرة فيها اسواق وبيع وشاء تسمى البازرجك[1]، فذهب التاجر ليدفن ولده فيها. وسرنا نحو خوفاً من الكرنتينة بعد أن وعدناه بالانتظار، ولم نزل سائرين نحو ساعتين حتى وصلنا إلى محل لطيف، وفيه قوم من التركمان [و28ب] فنزلنا هناك، ثم اتينا إلى شجرة، وخففت ما عليَّ من الثياب تحتها، وذهبت لقضاء الحاجة، ولما رجعت وجدت ثيابي يخرج الدخان منها، فبادرت لطفيها بعد أن أكلت النار نصيبها، وانحرق ثلث الجُبَّة، والحزام جميعه وبعض الكُمَر[2]، وكان الهواء قد رمى عليها شرارة فحصل ما حصل، فالحمد لله على كل حال، ثم توضأنا وصلينا ما علينا من الفروض، ولما صار وقت العصر حضر عندنا التاجر بعد أن دفن ولده. ثم بتنا تلك الليلة إلى الصباح، ولما انتبهنا توضأنا وصلينا الفجر، ثم ركبنا وسرنا إلى قبيل الظهر، ونزلنا على عين ماء تجري، وأوقدنا النار، وطبخنا القهوة، وأكلنا ما تيسر وحمدنا الله.

---

(1) مدينة تقع على الطريق الصاعدة من كوتاهية إلى يني شهر، بلدة كانت في العصر العثماني في ولاية ولواء خداوندكار، موستراس: المعجم الجغرافي للامبراطوية العثمانية ص200.

(2) الكُمَر، طية في الملبس يمرر منها شريط (التكة) الذي يلف على وسط مرتديه.

[يني شهر]

ثم ركبنا ولم نزل سائرين إلى العصر، وقد وصلنا إلى مدينة تسمى يني شاهر[1]، فنزلنا في الخان، ثم توضأنا وصلينا ما علينا من الفروض، ثم شرعنا في عمل الطبيخ، وطبخنا ما تيسر، وأكلنا وحمدنا الله، وبتنا تلك إلى الصباح، ولما انتبهنا توضأنا وصلينا الفجر، ولما ارتفعت الشمس ذهبنا إلى الحلاق وحلقنا رؤوسنا، ولما صار وقت الظهر ركبنا وسرنا.

[أزنيق]

ولم نزل مجدين السير إلى وقت العصر، وقد ظهرت لنا عقبة منخفضة طويلة ونحن على رأس العقبة، وهي تنتهي إلى بحيرة كبيرة[2] ماؤها عذب مسافة طولها يومين، وعرضها يوم، وعلى شاطئها مدينة كبيرة [و29أ] عامرة تسمى شن أزنيك، فنزلنا هذه العقبة على أرجلنا ومشينا على شاطئ البحيرة إلى أن مررنا عن المدينة والمذكورة[3].

---

(1) هكذا كتبها المؤلف، وتكتب، ينكي شهر، وتلفظ: يني شهر، اي المدينة الجديدة، أو الحادثة، مدينة كانت مركزاً لقضاء يتبع لواء أرطغرل في ولاية خداوندكار، تبعد عن بروسه 45 كم من جهة الشرق. سامي: قاموس الأعلام ج6 ص4805 و موستراس: المعجم الجغرافي للأمبراطورية العثمانية ص499. قلنا: لقد سلك الرحالة طريقاً يتجه شمالاً إلى أزنيق الآتية.

(2) هي المسماة أزنيق كولي أي بحيرة أزنيق.

(3) أزنيق مدينة تقع في أقصى شمال غرب الأناضول، بالقرب من مدينة نيقية التاريخية، تبعد عن استانبول بنحو 90 كلم. وهي مركز ناحية ملحقة بقضاء ينيشهر، تبعد عن بروسه بـ55 كم، من الشمال الشرقي، اسمها القديم نيقيه، ضمها سليمان بن قتلمش السلجوقي إلى دولة السلاجقة سنة 468هـ/ 1076م، ثم استولى عليها الصليبيون سنة 490هـ/1097م، وضمها العثمانيون إلى دولتهم سنة 730هـ/1333م. قاموس أعلام ج2ص 852. و موستراس: المعجم الجغرافي للأمبراطورية العثمانية ص56.سماها ابن بطوطة (يزنيك)، وقال أن لها أسوار أربعة، بين كل سورين خندق فيه الماء، ويدخل إليها على جسور خشب متى أرادوا رفعها رفعوها، وبداخل المدينة البساتين والدور والأرض والمزارع. رحلة ج2 ص198.ووصفها فضل الله المحبي بقوله «من أحسن البلاد الرومية عمارة وأسواقاً، وأكثرها خيرات وأرزاقاً، وأوضحها بياضا وإشراقاً، معتدلة الهواء، واسعة الفناء، ساكنة المساكن، مكينة الأماكن، سافرة المطالع، وافرة الصنائع، مخصوصة بعمل الأزنيق وبه تُعرف، وهو أحسن من

بحيرة أزنيق

ومما أخبرته أن هذه المدينة كانت حصن للشيخ جمال الدين رحمة الله عليه[1]، وبتنا تلك الليلة على شاطئ البحيرة بعد أن أبعدنا من المدينة نحو ساعة، ولما أصبح الصباح توضأنا وصلينا الفجر، وركبنا وسرنا إلى قبيل الظهر، ثم نزلنا للراحة تحت أشجار لطيفة، ثم أوقدنا النار وطبخنا القهوة وشربنا وأكلنا ما تيسر.

بوابة استانبول في أزنيق

الفرفوري عمل الصين وأظرف». الرحلة الرومية، مخطوط حققناه وهو تحت الطبع. وسماها طه الباليساني في رحلته (حدود 1180هـ/ 1766م) باسم (شزنيك). رحلته بتحقيقنا، أربيل 2008، ص36. وينظر بدر الدين الغزي: المنازل الرومية ص 111 ومحمد كبريت المدني: رحلة الشتاء والصيف ص189 وسامي: قاموس الأعلام ص852 وموستراس: المعجم التاريخي للإمبراطورية العثمانية ص54.

(1) لم نقف على هويته.

[قزدرو]

ثم ركبنا وسرنا في وقت العصر، وقد وصلنا إلى قرية تسمى قزدرو[1]، وجميع أهلها نصارى، فاشترينا اللحم وما يلزم لنا، وسرنا نحو ساعة، وقد أتينا إلى أرض يجري فيها نهر ماء لطيف، فنزلنا هناك، وتوضأنا وصلينا ما علينا من الفروض، ثم طبخنا ما تيسر وأكلنا وحمدنا الله، وبتنا تلك الليلة إلى الصباح، ولما انتبهنا توضأنا وصلينا الفجر.

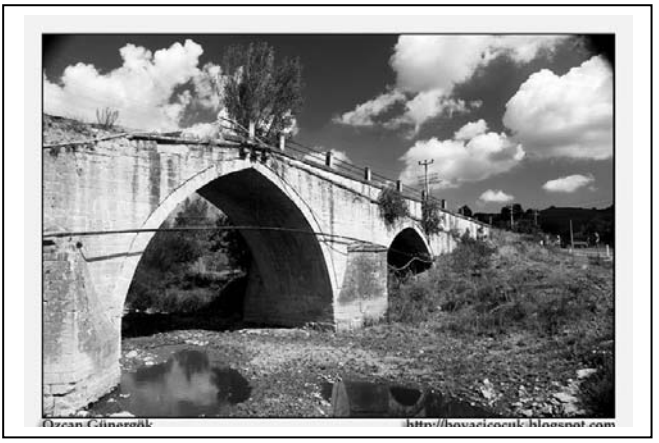

جسر على قناطر في يلاقدره

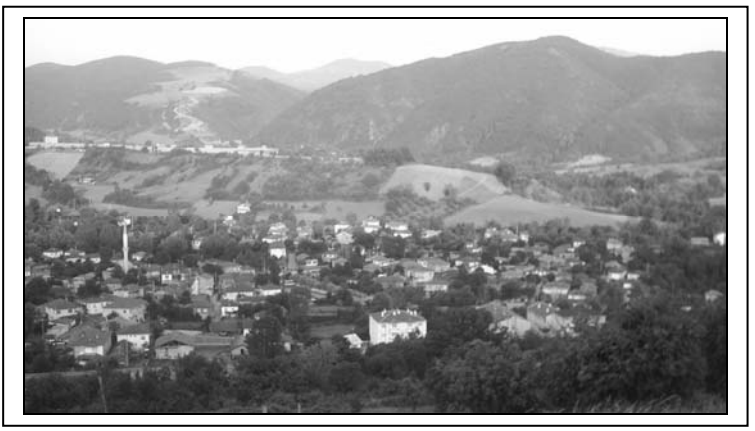

يلاقدره

(1) يظهر أنها بلدة يلاقدره Yalakdere وتقع في منتصف المسافة تقريباً بين الشاطئ الشمالي لبحيرة أزنيق والشاطئ الجنوبي لبحر مرمرة ، فالرحالة سلك إذن طريقا محاذياً لشواطئ بحيرة أزنيق، ومن هنا مضى باتجاه شمالي غربي ليصل إلى شبه جزيرة الديل الآتية.

[الديل]

ثم ركبنا وسرنا نحو ثلاث ساعات، وقد وصلنا إلى شاطئ بحر معترض منه بين جبلين يسمى الديل[1]، ومعناه بلغة التركية لسان، يعني لسان البحر، لأنه ممتد من البحر على صورة اللسان، وعلى شاطئه قرية كبيرة تسمى الديل باسم البحر، وعلى شاطئه سفن صغار معدة للمسافرين يقطعون فيها من الشاطئ [إلى][2] الشاطئ الآخر، ومسافة ما بينهما نحو ميل، وإذا أراد الإنسان أن يسافر في البَر لخوفه من البحر مثلاً يسير على شاطئه ثلاثة أيام أو أكثر، فاستأجرت فُلكيَن، بضم الفاء، وأنزلنا الدواب في واحدة، ونزلنا نحن [و29ب] في واحدة، وكان الريح معتدل، فما كان غير ساعة حتى خرجنا إلى الشاطئ الثاني، ثم أتينا إلى قهوة هناك وشربنا القهوة، فأنشدت ناظماً هذين البيتين:

قطعنا لسان البحر بالقرب حين أن قطعنا لسان البحر قهراً بحده
قطعناه لما طال وامتد حائلاً وما ناله المكروه إلاّ بمده

[كيبزه]

ثم ركبنا وسرنا نحو ساعتين، وقد وصلنا إلى مدينة تسمى كيبزه[3]، فنزلنا في القهوة، ثم توضأنا وصلينا ما علينا من الفروض، وطبخنا ما تيسر، وأكلنا وحمدنا الله تعالى. ثم نمنا إلى أن انتصف الليل، فانتبهنا وتوضأنا، وركبنا وسرنا

(1) ذكر الخياري أن اسمها معناه بالعربية (لسان البحر) وفيها كانت المراكب المعدة للتعدية. تحفة الأدباء وسلوة الغرباء تحقيق رجاء السامرائي، بغداد 1968ج2 ص111قلنا: وهي شبه جزيرة تقابل كيبزه الآتية، فمن هنا اجتاز رحالتنا البحر.

(2) ما بين معقوفين لنا، والذي في الأصل: في الشاطئ.، وشطب عليه.

(3) مدينة رومانية قديمة، انتحر فيها هانيبال سنة 183 ق.م وعُدت في العصر العثماني من أعمال قضاء قوجايلي، وصفها المحبي قائلاً "كيبوزه: وهي بليدة صغيرة على ساحل البحر، يتوصل منها إلى اسكدار على طريق الذاهب من قونية، وبينهما سبع ساعات". خلاصة الأثر ج3 ص474 قلنا: وهي اليوم مدينة زاهرة على الشاطئ الشمالي لبحر مرمره، وتبعد عن اسطنبول بنحو 50 كم. وتتميز بجسرها الفخم الذي شيده المهندس الشهير سنان باشا. يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، استانبول 1990، ج2 ص543.

في الليل المظلم، ولكن الطريق سهلة. ومن اللطائف التي وجدناها في هذه الطريق أن في كل مسافة ربع ساعة موضوع خشبة مكتوب عليها عدد الساعات التي بين القارئ وبين اسلام بول، وهذا من ترتيب السلطان محمود[1] رحمة الله عليه، بينما نحن سائرون إذ سمعت حامد القباني ينشد هذه الأبيات:

ولما تلاقينا على سفح رامة ... وجدت بنان العامرية أحمرا
فقلت خضبتني لكن بعد فراقنا ... فقالت ألا بالله ذلك ما جرى
ولكنني لما رأيتك راحلا ... بكيت دماً حتى بللت به الثرى
سحت بأطراف البنان مدامع ... فعدنا خضاباً بالدموع كما

فقلت مشطراً لهم: [و30أ]

ولما تلاقينا على سفح رامة ... وجسمي وقلبي ذاب والعين لا
ولما تعارفنا أضاءت نواظري ... وجدت بنان العامرية أحمرا
فقلت خضبتني لكن بعد فراقنا ... أيا غصن بان أو كبدر إذا سرى
أو العين قد أضحت تناظر غيرنا ... فقالت الله الله ذلك ما جرى
ولكنني لما رأيتك راحلاً ... فلا الشهد يحلو لي ولا ألق
ولما رأيت القلب قد سار نحوكم ... بكيت دماً حتى بللت به الثرى
فسحّت بأطراف النبات مدامعي ... لخوفي من العذال ولرب قرد رأى
تزايد مني الدمع فوق أناملي ... فعدت خضاباً بالدموع كما ترى

ومازلنا سائرين إلى طلوع الفجر، فنزلنا وصلينا الفرض، وركبنا، ولما أضاء النهار نظر في خشبة من الأخشاب المذكورات فوجدنا المسافة التي سرناها في الليل أربع ساعات، وبقي بيننا وبين الاستانة أربع ساعات.

---

(1) هو السلطان محمود الثاني، تولى السلطنة في سنة 1223هـ/1808م وتوفي سنة 1255هـ/1839م.

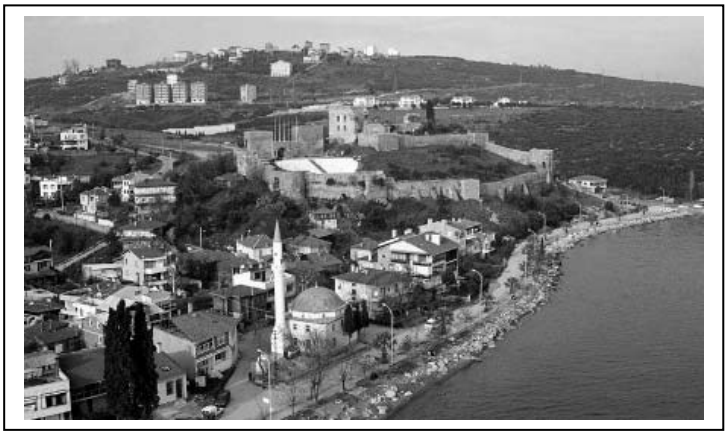

كيبزه وتظهر فيها قلعتها التاريخية ومسجدها

[قرطل]

ولم نزل سائرين حتى وصلنا إلى بلدة عامرة تسمى بقرطل[1]، فنزلنا في القهوة، واشترينا ما تيسر من الطعام، وأكلنا وحمدنا الله، ثم ركبنا وسرنا، ولم نزل سائرين حتى وصلنا حتى وصلنا إلى جسر سمي كُبر[2] البستنجي، فتعارضنا[3] ناظر الكرنتينة، فأعرضنا[4] عليه تذاكرنا فتركنا.

[أسكدار]

اسكله اسكدار

(1) مر بهذا الموضع الرحالة إبراهيم الخياري في رحلته وسماه (القرطلي)، ويفهم مما ذكره أنه يقع على شاطئ البحر. تحفة الأدباء ج2 ص111.

(2) كذا كتبها، وهو يريد: كبرى، أي الجسر.

(3) يريد: فاعترضنا.

(4) يريد: فعرضنا.

وسرنا لم نزل مجدين حتى وصلنا أسكدار[1]، فنزلنا على أسكلة البحر، ثم أن جناب الأفندي ذهب إلى الحمام، ولما حضر من الحمام، استأجرنا [و30ب] قايقاً ووضعنا حوائجنا وما معنا من الأخراج ونزلنا فيه، وهو بأربعة مقاديف، وقصدنا مقام قطب العارفين وقوت الواصلين سيدي وشيخي وجدي الشيخ محمد أبو السعود[2]، أنزل الله صبيب الرضوان عليه، ولم نزل حتى وصلنا إلى جسر من الخشب المُقيَّر الممتد على البحر من الشرق إلى الغرب، ومسافة امتداده نحو عشر دقائق، وهو في غاية من الإتقان، والذي أمر باقامته الملك الأعظم والخاقان المعظم المكرم السلطان محمود رحمه الله رحمة واسعة، وهو من العجائب العجيبة، والخوارق الغريبة، لم يسبق على أحد من الملوك الذين قبله، وله قنطرتان[3]، واحدة تذهب منها القوايق، وواحدة تأتي منها، خوفاً أن تتلاحم مع بعضها فيحصل الغرق، وفي كل قنطرة أوضتين، واحدة على اليمين وواحدة على اليسار، وفيها إناس من العسكر يحرسون خوفاً من الحريق، وهو رحمة للفقير والغني، ولما مررنا من تحته أنشدت ناظماً هذه الأبيات:

سمعنا ومشهور لدى كل عاقل رأينا ومعلوم لدى كل من درى
جسوراً على الأنهار جلت عدادها ولا عجب في دار لو كان موهرا[4]
ولكن عجيب كيف للبحر يافتى جسورا بهذا ما سمعنا ولم نرى
سمعنا بأن النيل لا جسر فوقه على انهم عدوه نهرا لقد جرى

[و31أ]

(1) هي القسم الثالث من مدينة استانبول، وتقع في الجانب الآسيوي منها، وكانت تابعة لمدينة خلقيدونية (قاضي كوي) وهي أول منطقة فتحها العثمانيون قبل فتحهم استانبول نفسها في الجانب الآوربي، ضمها السلطان أورخان إلى دولته في 753هـ/ 1352م، وتحولت في القرن السادس عشر إلى مدينة تجارية كاملة، تتألف من سبعين حياً، ومن أبرز معالمها مقبرة (قره جه) التي تعد أكبر مقابر استانبول. وكانت المنطقة التي يفضل العلماء السكن فيها، موستراس: المعجم الجغرافي للأمبراطورية العثمانية ص66

(2) يريد قبر أبي السعود محمد ، وقد دفن إلى جوار قبر الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري قرب أسوار القسطنطينية.

(3) في الأصل: قنطرتين.

(4) كذا في الأصل.

شارع في اسكدار سنة 1900

وما زلنا نسير في البحر حتى أتينا إلى أسكلة أيوب، وقد نلنا المأمول والمطلوب، وانتهى الحال منا من النزول للركوب، وحصل المرغوب، ولما طلعنا إلى الأسكلة أنشدت قول الشاعر[1]:

مشينا خطى كتبت علينا ومن كتبت عليه خطى خطاها[2]

ومن كانت منيته بأرض فليس يموت في أرض سواها

[مقام أبي السعود]

ثم سرنا قاصدين مقام الجد الكبير[3]، والعلم الشهير، إلى أن أتينا إلى الباب فوقفت فيه وقلت مشطراً لهذين البيتين:

لا أبرح الباب حتى تصلحوا جروحي وتعدلوا عن صدودي ثم هجراني

ولا أزال به حتى تحبوني وتقبلوني على عيبي ونقصاني

فإن رضيتم فيا عزتي ويا شرفي وإن منعتم فيا همي وأحزاني

(1) هو عز الدين محمد عبد العزيز بن أحمد سعيد بن عبد الله الدميري المصري.

(2) في أصل الأبيات: مشاها.

(3) دفن الشيخ أبو السعود في المقبرة المجاورة لجامع أبي أيوب الأنصاري.

وإن سمحتم فيا تهني وفرحي وإذا أبيتم فمن أرجو لغفراني

ثم دخلنا إلى تلك الروضة البهية والجنة الهنية، ونشقنا الطيب وواصلنا الحبيب، فوقفنا لنشاهد الأنوار، ونقطف الأزهار، ونصلي ونسلم على النبي المختار وآله وصحبه الأبرار، ونترضّى على صاحب الأسرار، من نحن في رحابه، وقد أتينا لجنابه، ووقفنا على أعتابه، وقد قلت مادحاً في جنابه هذه القصيدة الدالية:

قف في رحاب أبي السعود ولذ به يا من دهاه البين بالإبعاد

[و31ب]

هو الإمام محمد قطب المَلا كريمُ العطايا وخيرة الأجواد
شمس الوجود وذو العهود وفاضلٌ عين الشهود جئنا لذاك الغادي
قطبٌ ملاذٌ عمدة ذو خيرة غوثٌ غياث صاحب الإمداد
حَبر هُمام جهبذ نجم علا شيخ إمام قد حداه الحادي
بدر بدا شهم الندا وماجد حامي المريد وصادق الميعاد
سلطان كل العاشقين أعصره[1] في حُب مولاه الكريم الهادي
قرأ الحديث مفصَّلاً إجماله ومُوضِّحاً وتلاه بالإسناد
درس العلوم الظاهرية هكذا والباطنية صاحب الإرشاد
قد نال جُل مُراده من قادر ذي الفضل والإقدام والإيجاد
ودنا إلى رُتَب الكمال منادياً وصفت سريرته من الأحقاد
سعد الزمان به ونال مراده حمد الإله وقال ثم مرادي
فهو الملاذ أبو السعود وذو الوفا حرم الأمان وكعبة القصاد
يمم حماه وقف على أعتابه واندب وقل يا سيد السادات
واخفض جناحك واستظل بظله نادي وقل يا ملجأ الوراد

(1) كذا ولم نقف لها على وجه.

ثم الصلاة على النبي وآله والصحب والأزواج والأولاد
ما بلبل الأفراح غرد جهرة أو غنى قمري على الفرصاد[1]
[و32أ]

[مقام أبي أيوب الأنصاري]

ثم سرنا نشاهد الأنوار، إلى مقام سيد الأبرار، وخيرة الأخيار، من حباه الباري، سره الساري، سيد خالد بن زيد أبو ايوب الأنصاري[2]، فهو الذي شاعت بركاته في تلك الديار، وعَمَّت أنفاسه هاتيك الأقطار، قد أظهر الله ضريحه الشريف بالإلهام والكشف من سلطان الباطن والظاهر، والملك المنصور والناصر،

(1) الفرصاد: التوت.

(2) هو خَالدُ بنُ زيد بن كُلَيْب بن ثَعْلَبَةَ بن عبد عَمْرِو بن عَوْف بن غَنْم بن مَالك بن النَجّار بن ثَعْلَبَةَ بن الخَزْرَج، المشهور بأبي أيوب الأنصاري، دفن في أصل سور القسطنطينية في أثناء مشاركته في الحملة الإسلامية لفتحها سنة 52هـ، وأظهر السلطان محمد الفاتح هذه القبر بعد فتحه إياها، وأمر بانشاء جملة من المنشآت الفخمة عنده، تشتمل على مسجد جامع كبير ومدرسة ومطعم، وحمام ودار للضيافة، سنة 864هـ/ 1459م، ثم تخرب الجامع في أثناء زلزال ضرب المدينة سنة1180هـ/ 1766م، فأنشأ السلطان سليم الثالث جامعاً جديداً في مكانه هو القائم حالياً، فرغ من بنائه سنة1215هـ/ 1800م، وله قبة واسعة ومئذنتان، وفيه هذا الجامع كانت تجري مراسم تقليد السيف (سيف الرسول صلى الله عليه وسلم) إلى كل خليفة عثماني جديد. ونال الجامع شهرة في مجال الحياة الثقافية حيث كان يضم مكتبة كبيرة أنشأها السلطان محمد الفاتح عام 1459م،. وفي عهد السلطان سليم الثالث (1789 – 1808م)، قامت والدته بإحياء المكتبة القديمة، بتأسيسها مكتبة أخرى في مسجد أبي أيوب الأنصاري. وكان الرحالة فضل الله المحبي قد وصف هذا الجامع في أثناء زيارته له بقوله: أقول أنه مكان يشبه الجنان، ويحار فيه ناظر كل إنسان، نزهة النفس، وشمامة الأنس المهابة، جامع للمحاسن، وفائق بشرفه على تلك الأماكن، ذو قبة سنية، وعمارة محمدية، وقصور مزخرفة، مطلة مشرقة، مفتوحة الشرفات، مزخرفة الغرفات، مفروشة بالفرش البديعة، والبسط الرفيعة، والسُرَر المرفوعة، والأكواب الموضوعة، وهي بلدة مستقلة، وعن إسلامبول غير منفصلة[2]، من أجل المتنزهات معدودة، وللخيرات مقصودة. الرحلتان الرومية والمصرية، بتحقيقنا، تحت الطبع. وينظر:
Yahsin OZ, Istanbul camileri.Istanbul 1964,21-23.

المجاهد في الله حق جهاده، السلطان محمد الفاتح[1] من آل عثمان، حين أن فتح القسطنطينية[2]، وخلع الله عليه الخلع السنية، فنال بذلك سعادة الدارين، خصوصاً بإظهار ضريح هذا الحَبر الهُمام، بالكشف والإلهام، من الملك العلام.

باب حجرة قبر الصحابي أبي أيوب الأنصاري

جامع أبي ايوب الأنصاري

(1) هو السلطان محمد الثاني، تولى السلطنة في 26 رجب سنة 833هـ/20 نيسان 1429م، وتوفي في 4 ربيع الأول 886هـ/3 نيسان 1481م.

(2) فتحت القسطنطينية في 30 جمادى الأولى سنة 857هـ/29 أيار 1453م.

ولما ورَدْنا ذلك النهل، وقطفنا ثمار الوصل، وحفَّتنا البركات من كل الجهات، أنشدت مادحاً فيه هذه الأبيات:

يا عين قُرِّي واشهدي الأنوارا ... يا قلب هم سرّاً كذا إجهارا
واشطح وغني فالعواذل أبعدوا ... واسكَر وكُن في ديرهم خمّارا
وادخل إلى حان الصَّفا وقت الوفا ... بالمصطفى اهتف واكتم الأسرارا
وافرح وقف بالباب تعطى مغلقه ... ويزول عنك الهم والأكدارا
واشهد مشاهد صحب خير الخلق من ... نصروا وآووا وسُمّوا أنصارا
لا سيما من جئت أسعى نحوه ... ذاك ابن زيد زين الأبرارا
قل يا أبا أيوب أرجو نظرة ... تحيي فؤادي أبلغ الأوطارا

[و32ب]

ارفع براقع حسنك السامي لها ... ذا العبد يشفى واكشف الأستارا
كي تنطفي ناراً تأجج في الحشا ... وأرى جمالاً حَيّر الأفكارا
وأقول: يا عيني تملّي وأقنعي ... يا قلبُ دَع ما رمته قد صارا
ها خالد خال النبي المرتضى ... أعني الحبيب المجتبى المختارا
خُض في بحار عطائه دوماً ولا ... تخش بؤوساً لا ولا تيارا
قد أظهر الملك المهيمن قبره ... لما أزال الكفر والأشرارا
بالكشف من سلطان جيش الترك ... نعم الجيش جيش أخذل الكفارا
يا سيدا ماد الفضائل عنوة ... يا نجم جود دائماً سيارا
أنت الملاذ وأنت باب المصطفى ... وأنا أتيتك اشتكي الأوزارا
ووردت منهل فيضك العذب المري ... ووقفت ببابك هيبة ووقارا
فلأنت سلطان بأرض الروم من ... يأتي رياضك ينشق الأزهارا
يجني ثمار العز دوماً دائماً ... صبحاً سنا ضحوة إبكارا

ثم الصلاة على النبي وآله والصحب ما غنى الحمام وطارا
أو ما عبيد الباب أنشأ قائلا يا عين قري واشهدي الأنوارا

[العودة إلى مقام أبي السعود]

ثم بعد زيارة مقامه الشريف، رجعنا إلى محلنا عند ضريح الجد. وكانت مدة سفر هذا الفقير من مدينة نابلس إلى الآستانة ستين يوماً، لأني خرجت منها في سادس جمادى الأولى[1]، ووافق دخولنا [و33أ] الاستانة في صباح نهار السادس من رجب الفرد[2]، فمنها اقامة تسعة وعشرين يوماً، يوم في الرملة، ويوم في يافه، وثمانية أيام في بيروت، ويوم في قبرس، وعشرة أيام في علايا، وأربعة أيام في أضالية، وأربعة ايام في كتاهية، ومنها أربعة عشر يوماً في البحر، يوم من يافه إلى بيروت، وأربعة ايام من بيروت إلى جزيرة قبرس، ومن الجزيرة إلى علايا ثمانية أيام، ويوم من علايا إلى أضالية، ومنها سبعة عشر يوماً في البر، يوم من مدينة نابلس إلى الرملة، وأربعة أيام من أضالية إلى البُردُل، وخمسة أيام من البردل إلى كتاهية، وسبعة أيام من كتاهية إلى اسكدار.

ثم جلسنا في حجرة هناك مقابلة لضريح الجد، ثم حضر عندنا جناب مفخر العلماء الفخام، الشيخ محمد أمين أحد خدمة سيدنا خالد، وهو من أكابر العلماء والصالحين، ومن الحفاظ المشهورين، وصُحبته أنجاله الكرام، وكان له صُحبة وخلة تامة مع الوالد المرحوم، فسلم علينا، وفرح بنا، ولما صار وقت المساء أحضر لنا الطعام، فأكلنا ما تيسر، وحمدنا الله، ولما أن صلينا المغرب جلسنا مقابل الضريح الأنيس، وتلينا البُردة[3] والمُنفرجة[4]، ودعونا الله بما تيسر، ثم صلينا العشاء [ص33ب] وأخذنا مضاجعنا للنوم إلى الصباح.

---

(1) الموافق 30 كانون الأول سنة 1840م.

(2) 24 آب سنة 1841م.

(3) قصيدة «البردة» أشهر القصائد التي قيلت في مدح النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد نظمها محمد بن سعيد بن حمّاد البوصيري الصنهاجي ، المتوفى سنة 696 هـ.

(4) المنفرجة قصيدة مشهورة، باعثة على الأمل، لأبي الفضل يوسف بن محمد بن يوسف التوزري، المعروف بابن النحوي، المتوفى سنة 513هـ. كما تنسب إلى حجة الإسلام أبي حامد الغزالي، أولها:

ولما انتبهنا توضأنا وصلينا الفجر، وبعد أن طلعت الشمس وارتفعت، حضر عندنا عمدة الفضلاء الفخام، سلالة العلماء الأعلام، السيد مصطفى أفندي الخالدي، ذو الأخلاق الكريمة، والأوصاف الحميدة، قطعة الكمال، دام بكل تعظيم وإجلال، وصحبته السيد عثمان الجاعوني[1]، فتقدم من ضريح الشيخ وقرأ الفاتحة، ودعا الله ما تيسَّر، ثم سلم علينا بكامل الملاطفة، وفرح بنا كثيرا كما نحن كذلك، ثم أنه عتب على جناب الأفندي حيث أنه لم يرسل الحوائج إلى قُناقه[2]، وألحَّ على جنابه بأن يأخذنا إلى قناقه، وجناب الأفندي متوقف عن ذلك، وما أمكنت مروءته أن تبقينا في محلنا، فلما رأى جناب الأفندي من مروءته وفعاله أجابه إلى مقاله، ولله در القائل:

أبت المروءة أن تفارق أهلها وأبى الشجيع أن يموت ذليلا

ثم استأجرنا دواباً لتحميل الحوائج ودواباً للركوب، لأن بيننا وبين القناق المذكور ساعة ونصف، وهو في محلة تسمى عيسى قيسي، بالقرب من محلة داود باشا[3]، بجوار خير الدين السنجق دار. ثم ركبنا بعد أن حملنا الحوائج فما كان غير [و34أ] نصف ساعة حتى قابلنا جناب الكامل الفاضل، والشارب الناهل، الشيخ عبدالله البديري[4]، فسلم علينا، ثم سرنا جميعاً حتى وصلنا القناق ودخلناه وجلسنا فيه مستريحين. وفي اليوم التالي نزلنا إلى السوق الكبير[5] لقضاء

اشتدي أزمة تنفرجي قد أذن ليلك بالبلج

(1) أسرة مقدسية قديمة، قيل أنها تنتسب إلى الصحابي ابو عبيده عامر بن الجراح.

(2) القناق، وتكتب: قوناغ، تركية، بمعنى المخفر.

(3) محلة في استانبول نسبت إلى ثكنة هناك تعرف بثكنة داود باشا، أنشئت في عهد السلطان محمود الثاني (1808-1839) .

(4) أحد شيوخ الطرق الصوفية في بيت المقدس، شارك في الثورة ضد إبراهيم باشا بن محمد علي سنة 1834، وأسرة مقدسية هاجرت من المغرب العربي واستوطنت القدس لأجل عديدة، وعرفت باسمها هذا في القرن الحادي عشر للهجرة (السابع عشر للميلاد)، وخرجت عدداً من العلماء. الدباغ: بلادنا فلسطين ح10 ق2 ص356.

(5) هو السوق المغطى المسمى بالتركية قابالي جارشي، أسسه السلطان محمد الفاتح سنة 1453م، وكانت تباع فيه مختلف السلع مثل الفرو والصيني والبلور والأسلحة الثمينة والعطور وغير ذلك.

بعض مصالح، وهو على مسافة ساعة منا للمجد، فرأينا فيه من التحف ما شاء الله، وما يكل منه الوصف، فقضينا مصالحنا، ثم رجعنا إلى القناق المذكور، ثم بعد يومين حضر عندنا عين العلماء، وفخر الكرماء، وكريم الأصل والفرع، وارث علم النبيين، جناب طاهر أفندي مفتي البيت المقدس، بعد أن سمع بحضورنا، وكان في أسكدار في قناق عارف بيك، فسلم علينا وفرح بنا.

السوق الكبير المغطى في استانبول

[حمام الآغا]

وفي ثاني يوم دعانا إلى الحمام فذهبنا معه إلى حمام يسمى حمام الآغا في محلة سماطية قريباً منا، ولما دخلنا الحمام وجدنا في دائره فرشاً مصفوفة، وعلو كل فراش من الأرض نحو ذراع ونصف، وحشوها من الصوف اللين الجديد، وهو أي الحمام في غاية التنظيم والتنظيف والترتيب. ولما دخلنا إلى الداخل واغتسلنا وخرجنا جلس كل واحد منا على فراش من الفرش المذكورة، وحصل لنا النشاط التام، فأنشدت ناظماً هذه الأبيات:

عرّج لنحو حما الحمام صاح ومل اليه فهو شفاء منعش رطب

[و34ب]

حمام قديم في استانبول

رضوان خازنها يلقاك في صفة الـ أحباب أهلاً وسهلا ثم ينتصب
أتى بوصف جحيم في حرارته كذاك وصف نعيم إن ذا عجب
جل النعيم بأثواب منظفة كيف النعيم بلا ثوب وما السبب
بعين راسي رأيت الحور تمرح في دار النعيم كذا الولدان تطرب

ثم في اليوم الثاني عشر من رجب الفرد، أخبرنا بعض الإخوان بأن في هذا اليوم الصُرَّة أميني[1] يسافر إلى الشام، وإلى بيت الله الحرام، بمن يروم الحج عليه، ويخرج في موكب عظيم، فنوينا على أن نعطي النفس حظها من النظر إليه،

(1) تركيب تركي للمصطلح العربي (أمين الصرة)، وهو مسؤول بدرجة (بيلر بيه) الرفيعة كانت الدولة العثمانية ترسله على رأس حملة عسكرية سنوياً في موسم الحج، إلى الحرمين، محملاً بالهدايا الثمينة والأموال لمساعدة أهل تلك البلاد، ويكون بداية انطلاق الحملة في مدينة أدرنه، وسط احتفال كبير، وينضم إليه الحجيج من البلاد الإسلامية هناك. وقد استمر ارسال هذه الصرة براً حتى سنة 1864 وبعدها أخذت ترسل بحراً، وفي سنة 1908 أخذ المسؤولون العثمانيون يرسلونها عن طريق سكة حديد الحجاز. وتوقف ارسالها نهائياً سنة 1915م.

ولم يتيسر لنا ذلك لأن كان يوم الجمعة، وكنا قاصدين زيارة سيدنا خالد[1] وزيارة الجد أبي السعود، فحيث كان كذلك أنشدت مخاطباً بهذه القصيدة الرائية:

دعتني دواعي الشوق في مطلع الفجر ... دعتني أراعي النجم بالصد والهجر
قلتني قوالي البين أبكي صبابة ... على حب ليلى لا أرى سلوة تبري
كفتني كوافي العذل بعد بجهلهم ... ولاموا قتيل العشق لم يعرفوا عذري
ولما رأيت الركب قد شال ظعنه ... وسارت مطاياهم سكرت بلا خمر
وساروا إلى نحو الطلال وأسرعوا ... وجدوا وحادي العيس أعلن بالذكر
فناديتهم لم لا صحبتم معذباً ... بعيداً عن الأوطان يشكو من الضير
يكابد من أشواق نار وهجه ... ذليل يروم الوصل من قلة الصبر

[و35أ]

فبالله إن جزتم ربوع أحبتي ... وهبت سيمان الصبا فاغنموا أجرى
إذا ما وصلتم حي ليلى فبلغوا ... تحية مشتاق تجل عن الحصر
وقولوا الا رقي ومني واستقني ... قتيلاً أتاه الموت من حيث لا أدري
ألا يا مجدين المسير ترفقوا ... بروحي فإن الروح في ركبكم تسري
لقد بعت روحي بالوصال ولا أرى ... وصالاً كأني لم أبعها ولم أشري
عواذلي قد دعوا ليلاً بما عذلوا ... كأن دعاهم كان في ليلة القدر
إلى الله أشكوا ما ألم بمهجتي ... هو القادر الجواد ذو النهي والأمر
وصل على المختار في كل ساعة ... ووقت العشا والصبح والظهر والعصر
وآل وصحب ما حذوت منادياً ... دعتني دواعي الشوق في مطلع الفجر

(1) هو أبو ايوب الأنصاري.

[موكب السلطان في العيد]

وفي أول يوم من شوال، وهو يوم العيد المبارك، ذهبنا مع جناب مفتي أفندي المتقدم ذكره[1]، وجناب الشيخ عبد الله البديري لأجل الفرجة على الموكب الذي يخرج به السلطان[2]، ولما وصلنا سرايه همايون[3] دخلنا الباب الأول[4] فلم يتعرض لنا أحد، ولما وصلنا الباب الثاني وقفنا على مرتفع هناك[5]، وكانت العساكر مصطفة من الباب الثاني إلى باب جامع السلطان أحمد مسافة ثلث ساعة، فمن اليمين باشية وهم راكبون أفخر الخيول المزينة بأفخر الزينة، ولابسون [و35ب] أفخر الملابس ومستنظرون خروج السلطان، فما كان غير قليل حتى خرجت إليه كات، وهم خمسة عشر من الخيل النجدية المُسوَّمة التي لا يوجد مثلهم في عصرنا، وجميع سروجهم مرصعة بالجواهر الثمينة والياقوت والزبرجد، فمنهم اثني عشر سارت أمام الوزراء، وثلاثة وهم أفخر وأعلا من الإثني عشر ذاتاً وصفة وزينة، وبين عيني كل واحد جوهرة قدر حَبّة الفول، وسارت أمام السلطان. ثم خرج السلطان راكباً على حصان أدهم عليه من الدُرّ ما لا يوصف، وعلى رأس السلطان ريشات المُلك، وفوق الريشات كف من الجوهر الثمين، ومن سائر جهاته رجال على رؤسهم الريش، ويدعون له بطول العمر ودوام الملك، فدعونا له سراً

---

(1) هو طاهر أفندي مفتي بيت المقدس.

(2) هو السلطان عبد المجيد الأول 1255-1277هـ/1839-1760م.)

(3) شيد هذا القصر السلطان محمد الفاتح بعد دخوله القسطنطينية ويقع في نهاية المضيق على بحر مرمرة، وسمي تمييزاً لسراي سابق أنشأه، باسم (سراي جديد عامره) ثم عرف باسم طوب قابي سراي، وقد أضيفت إلى هذا القصر فيما بعد أجنحة كثيرة . وكان مقراً لواحد وعشرين سلطاناً متعاقبين، على مدى خمسة قرون، حتى جرى الانتقال منه إلى قصور أخرى سنة1254هـ/ 1839م، وهو آية من آيات الفن العثماني الإسلامي. أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية ج2 ص300.

(4) للسراي ست أبواب كبيرة، والظاهر أن الرحالة دخل من الباب الكبيرة الأصلية المسماة باب همايون، وهي اليوم المدخل لحديقة كلخانه.

(5) الباب الثاني هو الباب الوسطى، واسمه الرسمي (باب السلام)، ومنه يدلف من الفناء الأول إلى الفناء الثاني الذي يسمى (آلاي ميدان)، أي آلاي المراسم، وفيه تجري الاحتفالات الكبرى، مثل هذا الاحتفال الذي شاهده الرحالة، ويسمح للعامة بالدخول والتفرج، والباب الوسطى هذه هو اليوم باب المدخل إلى متحف سراي طوبقبو. أوزتونا ج2 ص299.

بقولنا: اللهم أعز به الإسلام وقوي شوكته على الكفرة اللئام، وأنفذ كلمته وألهمه العدل يأ أرحم الراحمين، وما زلنا على هذه الحال، وكلما سمعنا بمحل لطيف ذهبنا إليه.

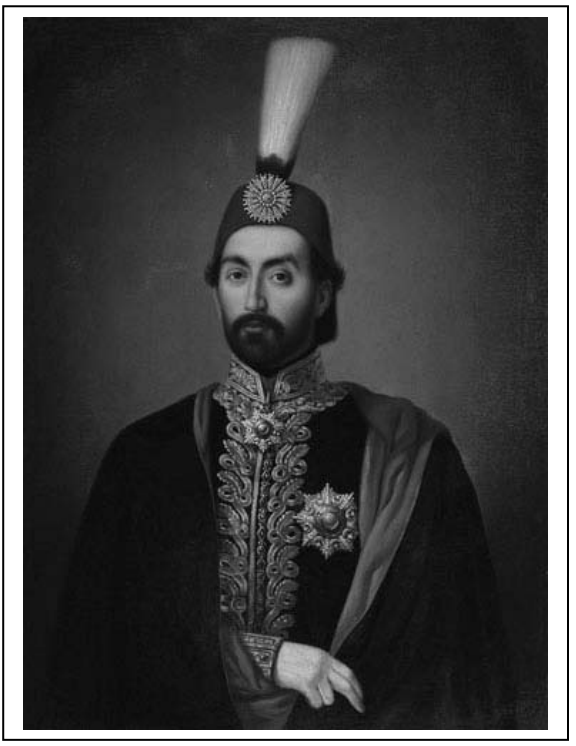

السلطان عبد المجيد

ثم في بعض الليالي رأيتُ في المنام كأن على ظهري أثقالاً كثيرة، وليس لي طاقة على حملها، فألهمني الله أن أقول استغفر الله العظيم، وأكرر ذلك فلم أشعر إلاّ والأثقال تسقط عن ظهري حتى ما بقي شيء، ولما انتبهت [و36أ] تذكرت قوله صلى الله عليه وسلم (لكل داءٍ دواءٌ)[1]، ودعاء الذنوب الاستغفار، فشرعت في عمل استغفارات لعلها أن تكون مقبولة عتد الله في غفران ذنوبي التي هي مثل الجبال، وهي هذه:

استغفر الله ما أذنبت في حضري أستغفر الله مما كان في سفري
استغفر الله في الأوقات أجمعها استغفر الله من نومي ومن سهري

(1) رواه أبو هريرة (لكل داء دواء فإذا أصاب دواء الداء برأ بإذن الله تعالى)

استغفر الله طول الله كامله استغفر الله عدد الأنجم الزهر
استغفر الله ما دام الظلام به استغفر الله ما قد ضاء القمر
استغفر الله في نومي وليلته استغفر الله قبل الصبح في السحر
استغفر الله في عامي وأشهره استغفر الله في البادي وفي صغري
استغفر الله في وقت الزوال كما استغفر الله في الآصال والبكر
استغفر الله مما قد جنته يدي استغفر الله من سمعي ومن بصري
استغفر الله عما الإذن قد سمعت استغفر الله من الهديس[1] ومن لهو ومن سمري
استغفر الله من وقت شممت به من طيب مسك زكي عاطر عطر
استغفر اللهىمن قلبي ومن قسوته به الصدا مثل حبر اسود كدر
استغفر الله من نفس وشهوتها استغفر الله من سقمي ومن ضجري
استغفر الله تعداد التراب كما استغفر الله عد الرمل والمدر
استغفر الله تعداد الجبال كما استغفر الله عد السهل والجبل

[و36ب]

استغفر الله من تعقدي ومن حسدي استغفر الله من كبري ومن كبري
ومن ريائي بفعل جاء ذاك هو الـ ـشرك العظيم هو الموصوف بالصغر
استغفر الله مما استغيب به وما نممت به كي ينقضي وطري
استغفر الله من كل الكبائر ما قد حرك الريح أغصاناً من الشجر
استغفر الله ربي أرتجي مناً استغفر الله ربي منشئ الصور
وصل ربي على الهادي وعترته محمد أحمد المختار من مضر
وآله وكذا الأصحاب ما نشدت استغفر الله ما أذنبت في حضري

(1) هكذا في الأصل.

[آثار النبوة]

وفي شهر ربيع الأنور حضر عندنا في مقام سيدنا الشيخ أبو السعود خدمة البردة الشريفة، ودعونا إلى زيارتها فأجبناهم إلى ذلك، وهي داخل السراية المذكورة[1]. ويقال أنها هي التي وهبها صلى الله عليه وسلم لكعب بن زهير رضي الله عنه، فذهبنا في سادس عشر الشهر ودخلنا إلى الباب الرابع، ثم حضر عندنا الخدمة المذكورين، وأدخلونا إلى الموضع الذي فيه البردة الشريفة، فوجدنا شيئاً يكل منه الوصف، بغاية الزينة، فوقفنا أم القبة التي هي داخلها، وتقدم الخادم وفتح لنا باب القبة، ثم دخلنا إليها فوجدنا خزانة، وأخبرنا الخادم أن في داخل الخزانة صندوقاً مختوماً بخاتم السلطان ولا تفتح إلاّ مرة في رمضان، وهي في داخله.

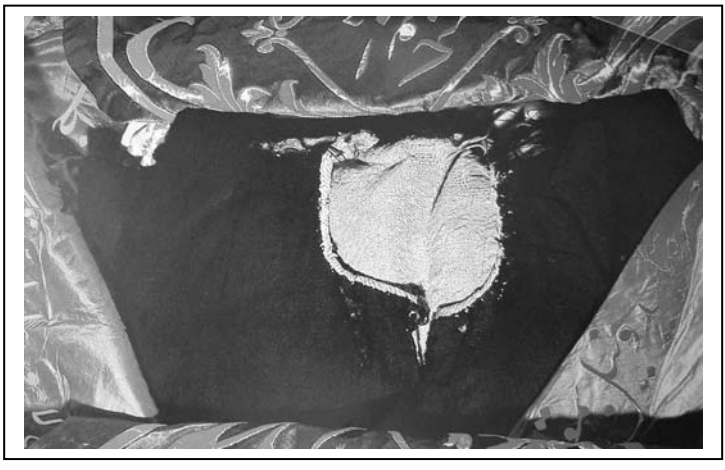

بقية من بردة النبي (ص) في استانبول

ورأينا أرض القبة وجدرانها [و37ب] من الداخل والخارج، والخزانة المذكورة مَكسيَّة بالقماش الفاخر المُطرَّز جميعه بالذهب والفضة، فوقفنا هناك وشخصنا أنفسنا أمام الروضة الشريفة، ودعونا الله وتوسلنا بصاحبها أن يفرج عنا وعن

(1) شيد الجناح الخاص بعرض آثار النبي صلى الله عليه وسلم والذي سماها العثمانيون (الأمانات المقدسة) من لدن السلطان سليم الأول، ويتكون من أربع صالات، ينفذ إليها من أحد ممرات طوبقابو سراي، وقد خصصت واحدة منها لعرض البردة الشريفة، وعلم الرسول (الراية الشريفة) وآثار أخرى للخلفاء الأوائل.

أمة محمد صلى الله عليه وسلم، ثم جلسنا وقرأنا البُردة والمُنفرجة، وذكرنا ما تيسَّر، فعند ذلك أنشدت ناظماً هذه الأبيات:

إلهي قلاني الشوق شوقي لأحمد فمن لي وقلبي ذاب من عظم ما به

إذا لم أطق سعياً إلى نحو طيبة وقد حل جسم الشوق في رمس غابه

أصلي على المختار من خير خلقه أشخص نفسي أنني عند بابه

أهرول سعياً نحو آثار نوره فأحيا سريعاً عند ذكر جنابه

ثم بعد مدة دعانا خادم البردة الشريفة الثانية[1] التي هي قريباً من جامع السلطان محمد[2] للزيارة وللطعام وللمبيت، وهذه البردة الناس يعتقدون أنها بردته – صلى الله عليه وسلم- ويقال أنها بردة سيدنا أويس القرني[3] رضي الله عنه، فذهبنا للزيارة، وكانت ليلة الجمعة، ولما دخلنا الموضع وجدناه محلاً مأنوساً. ثم بعد صلاة المغرب فتحوا لنا القبة التي هي داخلها، فوجدنا داخل القبة مُزخرَفاً بأنواع التحف، فأخرجوا لنا البُردة من صندوق لطيف، وعليها عشر لفائف، خمسة خُضر مطرزة بالذهب، وخمسة سُود مثلها، فلما أن رفع عنها اللفائف وجدنا [و38أ] الذي ظهر منها مقدار الكف، فقبلناها وتوسلنا بصاحبها بتفريج الهم والغم، ثم جلسنا لتلاوة البُردة والمُنفرجة، ثم بتنا تلك الليلة.

ولما أصبح الصباح، وكان يوم الجمعة، توجهنا لزيارة سيدنا خالد رضي الله عنه، وزيارة الجد الشهير، وقد دعانا إلى بيته الشيخ محمد أمين المتقدم ذكره، وبعد الطعام أتينا المقام المذكور وبتنا تلك الليلة.

ولما أصبح الصباح توجهنا صحبة المذكور من طريق البحر إلى محل أنيس لطيف يسمى الكاغات خانه، وهناك نهر كبير تجري فيه السفينة، وعلى شاطئ

---

(1) تسمى بـ (خرقه شريف)، وقد شيد جامع للحفاظ عليها، وتعرض على المسلمين ليلة واحدة في السنة، دون فتح صرتها (البقجة)، ففتحها للرحالة كان وضعاً استثنائياً حظي به من لدن القيمين عليها.

(2) يقصد جامع السلطان محمد الفاتح.

(3) هو أويس بن عامر القرني، أحد سادة التابعين، أدرك زمن النبي صلى الله عليه وسلم، استشهد في معركة صفين سنة 37هـ، ودفن في الرقة من بلاد الشام.

ذلك النهر سراي عظيمة للسلطان يأتي إليها في بعض الأوقات. ثم استقمنا في ذلك المحل إلى آخر النهار، وحصل لنا حظ وافر، ثم رجعنا إلى أيوب، وبتنا تلك الليلة، وفي الصباح أتينا إلى محلنا المعهود. ثم إني في بعض الأيام تذكرت الأهل والخلان، والبلاد وألوطان، بيت[1]:

بلادي وإن جارت علي عزيزة ولو انني أعرى بها وأجوع

ولما صعب علي الحال قلت ناظماً هذه الأبيات:

رعا الله أياماً مضت حين أن بدت بعز وطاب العيش إذ كنت آمنا

وسالمني دهري وصافى بجهده ودارت كؤوس الوصل بالأنس بيننا

وجادت لنا الأيام في كل منحة ودامت ليالي السعد إذ كنت ساكنا

ففاجأني الهجران والصد والجفا وحركني بالكسر إذ كنت ساكنا

وأقلقني وجدي وسهدي زائد وأنحلني شوقي وخفت المأمنا

[و39ب]

أعلل نفسي دائماً كل ساعة بنار عسانا مع لهيب لعلنا

صبرت ومر الصبر أحرق مهجتي وما نالني غير المشقة والعنا

أنا العادم المعدوم قد حرني النوى أنا الواصب الولهان قد ذلني الضنا

متى ينجلي المهموم من هم بعده متى تصفو أوقاتي وأظفر بالمنى

فمالي غير الصبر والله حيلة هو الحيلة العظمى لمن هام واعتنا

وكنت قد طالما أرسلت لهم كتباً ولم أجد من أحد منهم جواباً لأطفي لهيب الشوق والأوصاب، فنظمت لأستجلب منهم الخاطر، هذه المنظومة اللامية، وذكرت فيها جميع الأقارب والأحباب، وجعلتها كالكتاب، وأرسلتها صحبة نجاب وهي هذه:

---

(1) البيت للشريف قتاده بن ادريس بن مطاعن الحسني، وقد تولى أمارة مكه المكرمة عام 597 هـ وتوفي عام 617 هـ.

دعتني دواعي الشوق أرعى نجومها وأرصد فجر الوصل في ليل معرلي[1]

وأندب ركبان المطايا لنحوكم أقول لهم رقوا لمن بالنوى بلي

أقول لوجد بي والغرام ترفقاً قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

لقد شاقني إذ فاح من نحو حيكم إذا ما جنى جنح الظلام على الخلي

فوالله لم أنس الطلول وربعكم ولا البقعة البيضا ولا الحرم الجلي

لقد بزغت شمس البهاء نحو طوركم ولست بأقصى الهجر كالمتخيل

فمالي على السلوان فيكم مرارة فبالله بالأسباط رقوا لمبتلي

[و40أ]

ومذ كنت في مهد الصباوة مدنف شربت به كاسات صبر وحنظل

فأيوب بعد الصبر قد نال خلعة كأيوب بعد صبر من أين أين لي

فبالله قولوا مثل من قال شطره منازل من تهوى رويدك فانزلي

أريح الصبا إن جزت عن حي حيهم فهي عن المشتاق ربعي ومأملي

وقيل مرا بأقاح نشر عبيقه وبث لهم شكواك من ذي تحمل

ولا سيما ذي الفضل ذي الجاه ذي العلا وذي المجد ذي الإحسان لا زال موئلي

وذي نفحات من لدن راحم الملا وذي العلم كم قد حل من كل معضل

وكم فاضل قد جاء يسعى لنحوه وكم عالم قد هام فيه وكم ولي

وكم بزغت شمس العلا من سمائه وكم سل من غمد البها سيف مشمل

وكم قد رقى رتب السعود بجده وكم غاص في بحر الحقيقة للعلي

وكم نقلت عن الأحاديث جملة بإسناد مرفوع أتى ومسلسل

هو المنهل العذب الذي ساغ ورده فيغنيك يا صديان من كل منهل

---

(1) كذا في الأصل.

هو البدر من أفق السماء سناؤه هو الزهر في روض الشهادة ينجلي
هو الساقي جريال الكمال بكأسه هو البحر لا يخفى على المناصل
هو الراح معلولاً هو الشهد معدنا هو القطر معسولاً هو التبر فاسأل
وأعني به عثمان ذي النور ملجأي سعودي أصل والشهود له تلي
إذا كان جمع السعد أصلاً لناهل يكن فرع هذا الأصل أطيب ما صل

[و40ب]

فأكرم أنعم بأصل وفرعه جمال بها كامل ومكمل
ولا سيما إذ شابه الأصل واقتدى ومن يقتدي بالأصل ما زال معتلي
وأهدي ثنائي للذي جل قدره كريم السجايا بالموانح مصطلي
خليلي أصل سبط جدي وجيرتي جنى ثمرات الفضل هذا معولي
أقول من الهجرانرواأسفي على قد أبيضت العينان واشتد معضلي
وأهدي جزيل المدح للشهم سيدي وجسمي وروح الجسم أيضاً ومفصلي
كمال كمال الدين أعني محمداً تحلى بعقد الفضل بأنعم ذا الحلي
ألا يا ابن أم الهجر كم ذا إلى متى كأنك بغداد ولست موصلي
وأهدي لمن في الكون حامد ربه ثناء كدر نظمه عد خردل
حميد المزايا ذو المروءة والسخا بثوب جمال الفخر دوما سربل
وأهدي عقود أنظمها نظم جوهر إلى ناهل من دن خمر يعن لي
وذا عبد رحمن زهى في فخاره وبين زهور الروض مثل قرنفل
وبين نجوم السعد كان تربه وبين ثمار العز مثل سفرجل
فيا درة المجد الذي شاع نوره كأنك في وصف الصحابة مندلى
سلامي على ريحانة العز والبها محمد بكر رائق الطبع منجلي

[و41أ]

فبالمصطفى أرجوك هدياً وبهجة وفتحاً ونشرا صالحاً لتجملي
زهرة روض الأنس عبد السلام مع رشيد الفعال ابن الكمال المكمل
وزهرة ذي الأصلين أعني أبا الهدى هو الطفل في مهد البهاء الملا علي
ومن ذرة الإحسان أعني خديجة تذكرت حوراً في المقاصير تنجلي
وأهدي سلامي للذي حام نحوكم ومن في مقام الأنس طراً فرَتّل
أيا معشر السادات هل أن وصلكم ويا معدن الأكسير هذا تل لي[1]
ألا يا ليالي الأنس عودي بجمعنا إلا يا ليالي البعد عني تحولي
ألا يا لذيذ النوم كيف اجتماعنا ألا يا عذول اللوم يكفيك فأعد لي
أيا جيرتي يا عزوتي يا صبابتي شرحت لكم وجدي بتفصيل مجمل
وإن تسألوا عنا فلله عهدنا جميعا بخمر الشوق لا غير تسألي
وفي ظل ظل المجد نجلي غمومنا ومن حوضه نروي فلا زال ممتلي
وأعني به ذا كعبة الفضل والعطا وناهيك تاج الدين بحر التوكل
فبا الروح لم يبخل علي من ناح فيا قاصد إذاً فاتق الله واسأل
ومفتي أنام الكون ما زال طاهراً ودراً نفيساً نور غر محجل
فألبس النعمان خلعة مالك وتوّج تاج الشافعي وابن حنبل
وعن خالدي الأصل للخير مصطفى لعمري هذا البدر في كل محفل
ففي الناس محمود ولله حامد وذا درة في عصرنا لم تمثل

[و41ب]

خليل سعيد القوم لا بل وخلتي وراقي سماك الفضل في كل منزلي
وأما خليل البدر لا بل شقيقه فمع غادة الأنوار ما زال مختلي

(1) كذا في الأصل.

ومن اسمه من صيغة الحمد أحمد فحمدي له ما دام ذا العلا يلي
وغصن رياض المجد شاكل درة وكنز كنوز العز منه أتى علي
فقولوا لنعمان شقيقك حامد بكامل ما ترضاه أنت فحمد لي
ومن عند قاض نحو قدس سنة بأوفى جسور السرور لهم جُلي
ونذهب في يوم العروبة الذي هو المرهم الشافي إلي فجر دملي
مجدي وسعدي والسعود لها أب تحلى بثوب القرب في روضة العلي
ونسعى له في البر والبحر علنا بأنواره نحظى وبالفيض نختلي
ونأتي ضريح الجوهر الفرد سيدي نشاهد نوراً ثم للبدر نخجل
وندعو بجمع الشمل بيني وبينكم كما كان جمع الشمل في العام الأول
ولا سيما في روضة المجد خالد به الكون يجلو في العلاء وأسفل
وذاك أبو أيوب خال نبينا فأكرم به بدراً وأنعم بمخول
لقد آن لي والله لثم أنامل بفمي وعيني الحجا وأناملي
قريباً قريباً يدنو لي قرب قربكم وآتي لنحو الحي سعياً مهرول
صلاة مع التسليم نتلو جميعنا على خير مبعوث نبي ومرسل
وآل وصحب ما ترنم عاشق بصوت حداة العيس أو صوت بلبل

[و42أ]

وما أنشد الولهان عبد القادر فهذا مديحي فيكم وتغزلي

وبعد أن انتهيت من كتابته ونظمه حضر لنا كتب من القدس مضمونهم الصحة والعافية، فكتبت تحته هذين البيتين:

وبعد انتهائي من كتابة نظمه طفئت لهيب الشوق والقلب حن لي
حظينا بكتب أنعشت لب لبنا وكتابكم محلاً أصبنا بوابل

وكتبت على عنوانه هذه الأبيات:

غب الوصول إلى محروسة القدس لعزة المجد والأفلاك والشمس
يحظى بلثم يدي عثمان سيدنا أبو السعود وعنوان البها الأنسي
بحق اسم بدوح كن له سندا[1] لكي أرى السعد في أبوابه يمسي

[البوغاز]

ثم بعد مدة ذهبنا جميعاً إلى البُوغاز[2] الذي بين البحر الأسود والبحر الأبيض لأجل أن نتملى من نور بضعة سيد المرسلين، سيدنا الشريف عبد المطلب إذ هو في بيت على شاطئ البحر في البوغاز المذكور فاستأجرنا قايقاً ونزلنا فيه وسرنا إلى أن دخلنا في ذلك البوغاز، ونحن ننظر يميناً وشمالاً على البيوت المنظومات التي على شاطئ البحر ويسمونهم يوالي[3] ويزخرفونهم بأنواع الزينة، ويذهبون عليهم الأموال الجسيمة بحيث تبلغ كلفة الواحد خمسمائة ألف غرش، وهؤلاء اليوالي للصيف فقط، وأما في الشتاء فيأتون إلى الآستانة [و42ب].

وفيه قلعتان[4] في كل جهة متقابلتان لأجل المحافظة خوفاً من العدو[5]. ومن أعجب ما رأينا فيه أن الماء يجري في هذا البوغاز بحيث أن له تياراً أقوى من تيار النيل، يسوق في جريانه أكبر ما يكون من المراكب من غير ريح، والسفن لا تقطع هذا البوغاز إلاّ بالمشقة الشديدة، أو يكون الريح قوياً ويأتي من البحر الأسود ويصب في البحر الأبيض بغير نقص في ذاك ولا زيادة في هذا، وهذا فعل الله سبحانه وتعالى الذي لا يقدر عليه غيره، وعرضه نحو نصف ميل وطوله من البحر إلى البحر نصف يوم.

---

(1) بدوح هو اسم من حروف ممتزجة في علم الوفق، تنسب إلى الغزالي، يعدها الصوفية من اسماء الله تعالى.

(2) يقصد مضيق البسفور.

(3) يالي: لفظ تركي يعني ساحل، شاطئ، مصيف على شاطئ البحر.

(4) في الأصل: قلعتين.

(5) يقصد قلعة أناضولي حصار، وتقع على الساحل الآسيوي، وقلعة روميلي حصار وتقع على الجانب الأوربي.

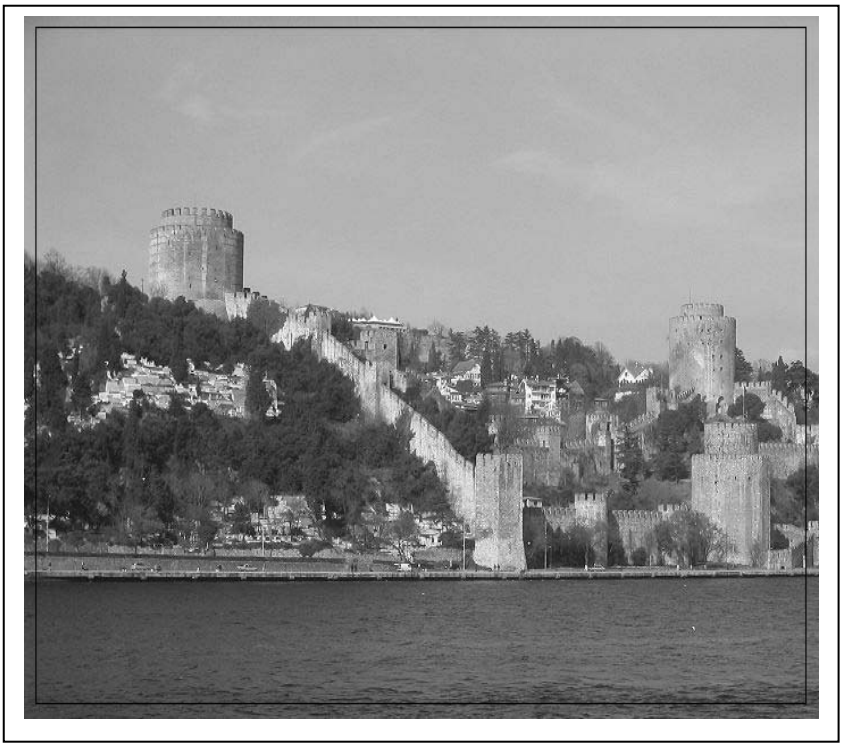

قلعة روميلي حصار المشرفة على البسفور

وما زلنا نسير فيه ثلاث ساعات، ولما وصلنا إلى السيد الشريف طلعنا إليه فوجدناه في غاية الإتقان بأنواع الانتظام، ورأينا أرض زقاق مفروشة بالأحجار الصغار الملونة، وهذا اليالي قد أعطاه السلطان لجنابه، ثم أقمنا في تلك الروضة المأنوسة ليلتين، وحصل لنا السرور وكمال الحبور، وتشرفنا وحظينا بلثم راحات السيد الهمام، والشريف المقدام، ابن الإمام، وابن بنت الأنام، وحصل لنا منه الأنس والمأنسة، أمدنا الله بمدد أهل بيت الرسول آمين.

ولما هاج قلبي بحب نسل النبي العدنان، قلت ناظماً هذه الشجرة ذات الأغصان، وهي: [و43أ]

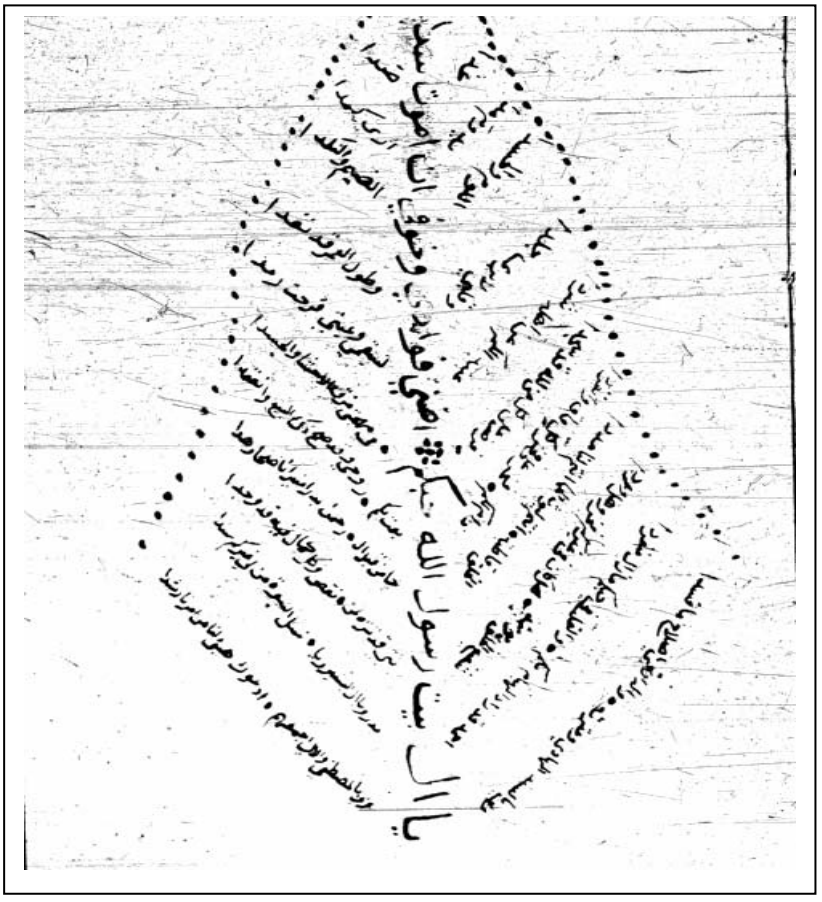

[و43ب]

ثم طلبنا منه الإذن في اليوم الثالث، وكان يوم الجمعة، وذهبنا إلى أيوب، ثم اجتمعنا بجناب الشيخ الحافظ محمد أمين السابق ذكره، وصحبته كتاب مجموع لطيف، فاستعرته منه ونقلت منه بعض فوائد، وكتبت ناظماً عليه هذين البيتين:

قد ابتهجت بمنظوم العقود وما حوته من درر في عقد ياقوته

تبارك الله ما أبهى لطائفها من دام يشهدها تغنيه عن قوته

ولما طال الهجر على المهجور، قلت مشطراً هذين البيتين:

وليلى ما كفاها الهجر حتى باحت قتلتي من يفتديني

وما رضت بهذا القتل حتى باحت في الهوى عرضي وديني

فقلت لها إرحمي العشاق قالت: بعيد ذا، فقلت لها عديني!

بوصل وارحمي ذلي فقالت: وهل في العشق يا أمي ارحميني!

وقلت مشطراً هذا البيت:

لو يسمعون كما سمعت حديثها هاموا ودمعهم أذاب خدودا

ولو نظروا إليها من بعيد خروا لعزة ركعا وسجودا

وقلت مشطراً هذين البيتين الصادقة على أهل هذا الزمان:

مررت على المروءات وهي تبكي وتشكو حين أصابها أنات

وتندب مرة وتنوح أخرى فقلت لها: لم تبكي الفتاة؟

فقالت: كيف لا أبكي وأهلي سقوا كأس المنون عند وفاة

[و44أ]

وخلاني وجيراني وربعي جميعاً دون أهل الناس ماتوا

ومما قلته في هذه المدة هذه الموشحات كنا نقولها في الذكر:

دور

يا معشر الحضار هيموا بذكره يشفى السقيم

هذا صراط مستقيم ومنهل يروي الظمآنا

دور

أيا نُدام الحي هيا لنرشف كأس الحمي

كأس لنا أحيا وحيا من نوره تغدو سكرانا

دور

لذ نحو خمار الملاح ومدم وبكر في الصباح

وهم بها سكران صاح أحيي بها قلباً صديانا

دور

أيا أصحابي هلموا أيا ندام الحي لموا

أيا سقاة الراح عموا لا تتركوا فينا عطشانا

دور

أيا مدير الكأس فينا أقسمت بالكأس يمينا

بلذة الشاربين در كأسك الصافي ملأنا

دور [و44ب]

ثم صلاة مع سلامي على شفيعي في الزحام

والآل والصحب الكرام ما عبدهم أضحى ولهانا

احد سرايات استانبول

[جوامع الاستانة]

والآن أريد أ أذكر بعضاً مما في الآستانة العلية.

ذكر الجوامع السلطانية:

جامع السلطان محمد الفاتح[1]

(1) هو جامع السلطان محمد الفاتح، ويقع في وسط استانبول في منطقة كبيرة تنسب إليه، أنشأه السلطان المذكور بين سنتي 867-875هـ/ 1462 -1470م، ليكون آيات العمارة

جامع السلطان سليم الأول[1]

جامع السلطان سليمان بن سليم واسمها السليمانية[2]

جامع السلطان بايزيد الأول[3]

جامع نوري عثمانية. بنى هذا الجامع سبعة ملوك، والذي أتم بناءه السلطان عثمان، وسماه باسمه[4].

الاسلامية العثمانية في عصره، ولكن خراباً أصابه في سنة 1179هـ/ 1766م، بسبب الزلزال، فقام السلطان مصطفى الثالث بترميمه في السنوات 1180-1184هـ/ 1767-1771م، وأضيفت إليه مرافق عدة، منها ساحة واسعة أنشأها السلطان محمود الثاني، وغير ذلك من المنشآت العمارية في نهاية القرن الثالث عشر للهجرة (19م). وذكر الخياري أنه كان يحيط به مساكن القضاة والعلماء وطلبة العلم، وحوله المدارس العامرة . تحفة الأدباء ص 97. وينظر .Yahsin OZ, Istanbul camileri,29-31

(1) هو جامع السلطان سليم الأول، يطل على القرن الذهبي، بدأ به السلطان المذكور، وتم بناؤه سنة 929هـ/ 1522م في عهد خلفه سليمان القانوني، تميز بناؤه بقبته الكبيرة المنخفضة، وبأروقته المحمولة على أعمدة من حجر الكرانيت، ويضم مدافن أولاد السلطان القانوني الأربعة، وآخر للسلطان عبد المجيد سنة 1278هـ/ 1861م. قال الخياري " هو عجيب أيضاً بلغ الغاية في ارتفاع محلة ويحيط به مدارس وعمارة هي عبارة عما يعد فيه طعام للمقيمين بالمدرسة ونحوهم" . تحفة الأدباء ص97 وينظر.Yahsin OZ, camileri.Istanbul,4143

(2) من أفخم جوامع استانبول وأكثرها سعة وجمالاً، وضع تصميمه وأشرف على بنائه المعمار الشهير سنان باشا، وقد استغرق بناؤه سبع سنوات من 957 الى 965هـ/ 1550 إلى 1557م، وقد ألحق به مجموعة من المنشآت المهمة، منها مدرسة مستشفى وحمام ودار للحكومة وخزانة كتب، وللجامع قبة واسعة عالية، وأربعة مآذن. وشاذروان وجنينة واسعة. وصفه الخياري سنة 1081هـ/1670م بأنه «مسجد متسع الجهات والأنحاء، فائق الوضع والرفع والبناء، مستكمل تمام البهجة والإشراق والسناء، لاسيما من حيث ارتفاع المحل الكائن به». تحفة الأدباء ص95 وانظر .Yahsin OZ, Istanbul camileri.Istanbul,54-60

(3) جامع فخم أنشأه السلطان بايزيد الثاني سنة 910هـ/ 1505م، ويضم مدرسة وحماماً ومرافق خيرية أخرى، ويعد أنموذجاً بارزاً للعمارة العثمانية، فقبته الكبيرة تقف على نصفي قبتين، ثم على مجموعة من القباب الأصغر، وله جناحان كبيران، ومئذنتان، ونافورة جميلة، ثم تحولت مدرسته الدينية إلى مدرسة حديثه، وحول بعض مرافقه إلى متحف للوقف.

(4) يقع في وسط استانبول، بدأ بإنشائه السلطان محمود الأول في السنوات 1160-1169هـ/1747-1755م على منطقة صخرية مرتفعة، وأتم عمارته السلطان عثمان الثالث، وله قبة واحدة لا عمد لها، وهو مئذنة بشرفتين يضم مدرسة ومكتبة وسقاية ومرافق عدة

جامع السلطان أحمد . وهو ألطفهم[1].

جامع يني جامع، أي الجامع الجديد، بناه إحدى الوالدات من والدات الملوك[2]

جامع اللقللي[3]. بناه السلطان سليم الثاني.

جامع الشاه زادات. بناه بعض الملوك باسم ولده[4]

جامع أي صوفيه. وأصله كنيسة بناه قسطنطين تعجز عن وصفه البلغاء[5].

مختلفة منها ضريح لأم السلطان عثمان المذكور، يمثل الجامع مرحلة مهمة في فن العمارة العثمانية في تأثرها بالعمارة الأوربية.

(1) أضخم جوامع استانبول وأكثرها فخامة، أنشأه السلطان أحمد الأول في السنوات 1017-1024هـ/1609-1616م/، له قبة ضخمة تقوم على ستة أعمدة كبيرة، وألحق به مدرسة وحمام وسقاية ونافورة ومستغلات عديدة منها دكاكين ومخازن، ويتيمز الجامع بوجود ست مآذن فيه، وقصر ملكي (خنكار) لاستراحة السلطان، وضريح دفن فيه مؤسسه وبعض أولاده وأحفاده، سمي بالجامع الأزرق لوجود زينات بالقاشاني فيه.-camileri.Istanbul87 Yahsin OZ, 96.

(2) يقع مقابلا لسوق مصر، الذي هو من أوقافه، ويسمى جامع الوالدة، بدء في إنشائه سنة979هـ/ 1589م باسم زوجة مراد الثالث، ثم توقف البناء مدة واستئنف بأمر من والدة السلطان مراد الرابع سنة 1071هـ/ 1661 وافتتح سنة 1073هـ/ 1663م، وهو يضم قبة رئيسة تقوم على أربعة أنصاف قباب وقباب أخرى مختلفة الأبعاد تبلغ 22 قبة، وله مئذنتان ومدرسة، ونافورة، وضريح كبير يضم قبور السلطان الوالدة وخمسة لسلاطين عثمانيين وأخرى لأفراد من الأسرة العثمانية. .Yahsin OZ, Istanbul camileri.Istanbul,84-87

(3) هكذا في الأصل، ولم نتوضح هذا الاسم. وهو الجامع الذي أنشأه أمر بإنشائه سليم الثاني سنة 1538م في اسكدار، وقد أشرف على بنائه المعمار النابه سنان، ويضم مدرسة، ودارشفاء، ومكتبخانه، ومسافرخانه، وغير ذلك من المنشآت الخيرية.

(4) جامع الشاه زاده (ولي العهد)، يقع في حي باسمه، أمر بإنشائه السلطان سليمان القانوني لاجل ابنه محمد الذي سيعتلي العرش بعده، سنة 930هـ/1543م وهو مشيد على وفق الطراز العثماني، حيث قام بتصميمه المهندس النابه سنان، له قبة تقوم على أربعة عمد ضخمة، محاطة بأنصاف قباب، وتسعة قباب، ومئذنتان بشرفتين، ونافورة أضافها السلطان مراد الرابع، ومن مرفقاته مدرسة كبيرة تتألف من عشرين حجرة أضيفت سنة 952هـ/ 1546م.

(5) الصحيح أن الذي أمر ببنائها هو الأميراطور البيزنطي جستنيان لتكون مقراً للكاتدرائية الأرثذوكسية، صممها على نحو فريد مهندسان يونانيان، وجمعت مواد البناء من أنحاء الأمبراطوية المختلفة، حولها السلطان محمد الفاتح سنة 856هـ/ 1453 إلى جامع، وكان هو

هذا في داخل الآستانة العلية، وأما في الخارج :

فجامع سيدنا أبي أيوب. بناه السلطان محمد الفاتح[1]

جامع السلطان محمود في الطوب خانه[2].

جامع السلطان عبد الحميد في بيلربيه في جهة الأناطول[3]

وهذه الجوامع منها من له منارتان[4]، ومنها من له أربع منائر، ومنها [و45أ] من له ست منائر، وهذه المنائر فيها من هي بطبقتين، ومنها من هي بثلاث طبقات، وفي كل جامع من هذه الجوامع كتبية حاوية من سائر العلوم والفنون، وهي لا مثال لأقلها في سائر البلدان، وإذا أردت وصفها تحتاج إلى مجلد كامل.

وأما جوامع الوزراء وجوامع المحلات فلا أعلم عددها، ولا أقدر أن أحصيها.

[سرايات الآستانة]

ذكر السرايات التي في داخل الآستانة:

سراي هميون، وتسمى يني سرايه

يني سراية، وهي قريبة منها ويتوصل إليها منها

أسكي سراية أي السرايه القديمة[5].

أول من صلى فيه عند فتحه المدينة، عني السلاطين العثمانيين المتوالون بالاضافة إليه، فأنشأ فيه المهندس سنان، بأمر السلطان سليمان القانوني مئذنتان، وأضاف السلطان بايزيد له مئذنة ثالثة، وضم ضريح دفن فيه السلطان سليم الثاني ومراد الثالث ومحمد الفاتح، ويضم الجامع مدارس ومطبخ للفقراء ومكتبة تحول الجامع إلى متحف سنة 1931.

(1) تقدم التعريف به.

(2) أنشأه السلطان محمود الثاني سنة 1241هـ/1825م.

(3) يقع في القسم الآسيوي من استانبول في منطقة بيلربيه، تم إنشاؤه في عهد السلطان عبد الحميد الأول لتخليد ذكرى والدته السلطانه ربيعة سنة 1202هـ/ 1778م، على أرض كان يشغلها أحد القصور، جرى تجديده في عهد السلطان محمود الثاني فأضيفت له سقاية، ونقضت مئذنته وشيدت مكانها مئذنتان، وغير ذلك..Yahsin OZ, camileri.Istanbul,160

(4) في الصل: منارتين

(5) هو القصر المعروف بطوب قابي سراي، وكان مقراً لواحد وعشرين سلطاناً متعاقبين، على مدى خمسة قرون، حتى جرى الانتقال منه إلى قصور أخرى سنة1254هـ/ 1839 ، ويقع على شاطئ بحر مرمرة. وهو آية من آيات الفن العثماني الإسلامي.

سراية أسماء سلطان أخت السلطان محمود.

وأما الخارج فالأولى سرايه بشكطاش[1]

وسرايه شراق يالسي، بناها السلطان محمود، وأنفق عليها نحو خمسة وستين ألف ألف غرش، ومات قبل أن يسكنها[2].

سراي بيلر بيه. بناها السلطان محمود[3]

سراي الكاغات خانه[4]

سراي في أيوب، لأسماء سلطان المذكورة.

وأما القصورالتي في المحلات المنزهات

داخلاً وخارجاً فلا أعلم لها عدداً لكثرتها.

[الحمامات والخانات]

وأما الحمامات داخلاً خارجاً فعدتهم مائتين وخمسة [و45ب] وسبعين حماماً، وكل واحد باثنين، واحد للرجال وواحد للنساء، وإذا حسبت جميع حمامات بلاد الشام فلا تبلغ مقدار نصفها.

---

(1) أمر بإنشائه السلطان محمود الثاني وسمي باشكطاش سراي همايون، نسبة إلى الحي الذي أنشئ فيه. ويذكر أوزتونا أن سراي دولمه بقجه القديم الذي شيد فيه السلطان محمود الثاني قصره هو نفسه قصر بشكتاش، الي سكن فيه ابنه عبد المجيد من بعده. تاريخ الدولة العثمانية ج2 ص306.

(2) يظهر أن هذا القصر هو الذي أنشأ السلطان عبد المجيد فيما بعد قصره المعروف بدولمه بقجة سنة1257هـ/ 1842. .

(3) أنشئ في القرن السادس عشر ليكون مصيفاً لموظف كبير برتبة بكلربكي، أو بيلر بيه، فنسب إليه، ثم أنشأ فيه السلطان محمود الثاني مقصورة خشبية، وذلك في الربع الأول من القرن التاسع عشر، وهذا ما دعا الرحالة بنسبته إليه، وفي سنة 1281هـ/ 1865 أنشأ السلطان عبدالعزيز قصره الفخم في هذا المكان، ليكون مقراً له ودار إقامة لأسرته، فعرف بقصر بيلر بيه نسبة إلى الإسم القديم للمكان. وقد تم استخدام القصر الذي اتمم انشاءه مصيفاً للسلطان عبد العزيز وعائلته وبالاضافة لذلك كمكان لاستضافة الضيوف..

(4) كذا كتبها المؤلف بحسب اللفظ التركي، وهي (الكاغد خانه) أي مصنع الورق ومكان حفظه، وكان يعد من متنزهات استانبول على ذكره الرحلة فضل الله المحبي في رحلته.

وفيها الخانات لاعداد لها .

وجميع ما تطلبه تجده بلا كلفة، وتجد فواكه الشتاء تدوم بها للصيف، وفواكه الصيف تدوم بها إلى الشتاء، والتفاح والكمثرى والعنب لا ينقطعون لا صيفا ولا شتاءً. وتجد فيها أنواع التحف والملابس ما يكل عنه الوصف. ومما لا يمكن أن تطلب شيئاً ولا تجده. ثم إني قلت ناظمها فيها هذه القصيدة الميمية:

يا من يروم صفاء العيش من كدر ... أشهد شاهد دار العز والكرم
دار الخلافة تلك الدار مؤنسة ... نسبة كهجير الدار من عدم
عديمة المثل في الأقطار أجمعها ... ما مثلها في بلاد العرب والعجم
عرج وهرول وسافر واقصدن ومل ... بكر وسر وانتقل وارحل ووافت كل ذي
إلى التي قد سمت عزاً وراحتها ... صفت وصافت ووافت كل ذي سقم
علت ومالت وفاقت أنست وزهت ... كغادة تنجلي في حندس الظلم[1]
بها الأمان والإطمئنان منعكف ... والعدل والفضل والإحسان من قدم
والهم والغم لا يأتي لها أبداً ... وحسنها شاع في حل وفي حرم
تجملت بالبها قد طاب مسكنها ... ما مثلها في .....[2]
كجنة الخلد أو عدن لقد جمعت ... ما تشتهي النفس أو يلتذ منه فمي

[و46أ]

فواكه الصيف دامت للشتاء بها ... كل ما تشا ولا تخشى من الألم
والورد في كل آن تبتغيه ترى ... عبيره طيباً من ثغره البسم
دامت لديها ففاقت كل فاكهة ... من سائر المدن إذ جاءت ولم تدم
دع منكر لحسنها من جهله سفهاً ... واسمع مقالة ذي فضل وذي كرم

(1) في الأصل: حندت. والحندس: الليل شديد الظلمة.
(2) بياض في الأصل.

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم

فيها الجوامع لا يحصى لها عدد مثل النجوم تضيء في ليلها البهم

بها المنازل قد زادت محاسنها شعائر الحق والإسلام قل بهم

ترى الطباق بها مثنى وثلاث ومن الله أكبر تجلي الصدر من وخم

تزينت ببني عثمان وافتخرت على البلاد ومن فيها من الأمم

ملوكها قد أقاموا الدين حين بدا مثل الغريب بهم قد عاد كالعلم

لقد أذلوا ملوك الأرض قاطبة والكافرين وأيضاً عابد الصنم

داموا بخير ودام العدل سمتهم والسعد دوماً على الأبواب لم ينم

يا آل عثمان دوموا بالهنا أبدا فالنصر في بابكم من جملة الخدم

ثم الصلاة على خير الورى سندي وآله وكذا الأصحاب كلهم

ما أطرب الحادي بطوي البيد معتسفا أو غنى قمري على الأغصان بالنغم

جامع السلطان أحمد

جامع السليمانية

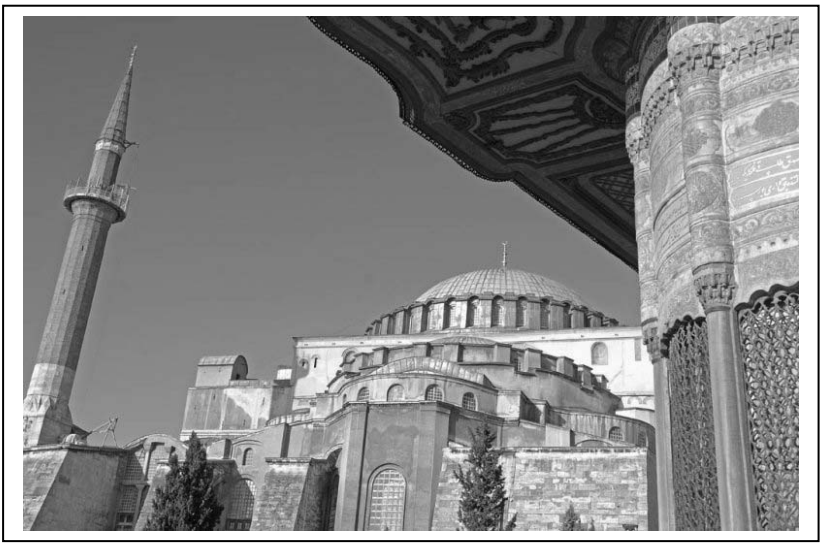

جامع أيا صوفيا

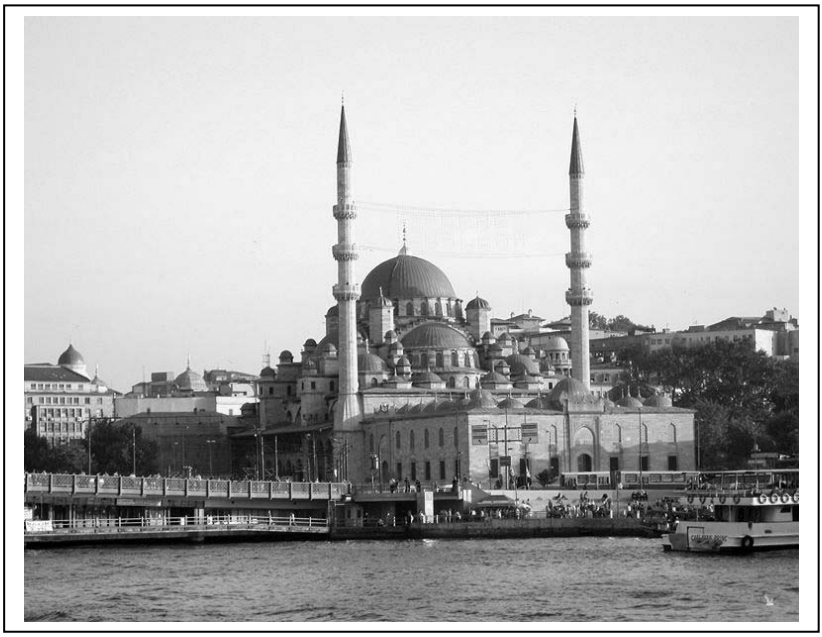

جامع يني جامع

باب همايون حيث الآثار النبوية

سوق قديم في استانبول

الفهارس

فهرس الأعلام

ابراهيم الخياري 83، 85
ابراهيم باشا بن محمد علي 37، 93
ابن الوردي 21
ابن بطوطة 63
ابن عبد الحق 19
أبو العباس 24
ابو بكر الصديق، الخليفة 79
أبو حامد الغزالي 92
أبو ذؤيب الهذلي 78
ابو هريرة 98
أحمد ابن الخازن البغدادي 49
أحمد أبو السعود 6، 37
أحمد الصلاحي 37، 38
أحمد اللحافي البغدادي 15
أحمد باشا الجزار 38
أحمد بن يوسف المنازي 77
أحمد عبد الرحيم مصطفى 67
أحمد نظيف، القاضي 50
أورخان، السلطان 86
أوزتانا 115
أوغسطس، الأمبراطور 44
أوليا جلبي 21، 76
أويس القرني 101
بدر الدين الغزي 81
تشارلز ويلسون 14، 19، 31، 35، 39، 42
جب وبوون 67
الجنيد البغدادي 25
حامد أبو السعود 6، 20، 106
حامد القباني 37
حسن رضوان 47
حسين الدجاني 39
حمدونة بنت المؤدب 77
خليل أبو السعود 6، 37
خير الدين السنجق دار 93
داود بن رزين 70
دري زاده، شيخ افسلام 5
ربيعة، السلطانية 114
رجاء السامرائي 83
سعيد الخليلي 31
سليم الأول، السلطان 100
سليم الثالث، السلطان 87
سليمان القانوني، السلطان 39
سليمان بن عبد الملك، الخليفة 31
سليمان قتلمش 80
سنان باشا، المعمار 83
سيدي علي التركي 15
الشافعي، الإمام 19
شمس الدين سامي 81
صلاح الدين الأيوبي، السلطان 19، 31
طه الباليساني الكردي، الرحالة 15، 75، 81
الظاهر بيبرس 29، 31، 44، 72

عبد الرحمن الأوزاعي 50
عبد العزيز الديريني 50
عبد الغني النابلسي 31، 48، 50
عبد القادر أبو السعود المقدسي 6،5، 106
عبد الله البديري 96
عبد المجيد، السلطان 7، 97، 98، 115
عثمان أبو السعود 107
عثمان الجاعوني 93
عثمان بن عفان، الخليفة 79
علي أبو السعود 6، 37
علي بن أبي طالب، الإمام 79
علي حسن البواب 37
عمر الصباغ 49
عمر بن الخطاب (الخليفة) 42، 79
عمرو بن العاص 21
فضل الله المحبي 80، 87
قتادة بن إدريس الحسني 102
قسطنطين، الإمبراطور 112
كتشفر، الرحالة 42
لسان الدين ابن الخطيب 77
مجير الدين الحنبلي 42
محمد أبو السعود (جد المؤلف) 5، 6، 18، 20، 31
محمد الفاتح، السلطان 87، 88، 90، 93، 97
محمد أمين، الشيخ الحافظ 92
محمد باشا أبو نبوت 10
محمد بن سعيد البوصيري 92
محمد بن شاكر الكتبي 77
محمد بن عبد العزيز الدميري 87
محمد تاج الدين ابو السعود 7
محمد شيا 19
محمد عرفات 31
محمد عمر حمادة 38
محمد كبريت المدني 81
محمود الثاني، السلطان 6، 7، 11، 84، 93
مصطفى أبو السعود 6
مصطفى الخالدي 93
مصطفى الرفاعي 50
مصطفى مراد الدباغ 5، 6، 19، 28، 37، 93
المنقب العبدي 23
موستراس 81، 86
موسى الخالدي 5
نابليون 19
الناصر قلاوون 31، 33
نعمان أبو السعود 6، 106
نور الدين بن ايوب 19
هانيبال 83
هيرودس 44
ياسر عرفات 31
يوسف الداعوق 47

فهرس الأماكن والمواقع

أبو ظبي 15
أربيل 15
أرسوف 7، 42
أزنيق 75، 80
أزنيق كولي 80، 81، 82
استانبول 11، 83، 84، 95، 111، 114، 115، 120
اسكدار 85، 86، 87، 92، 94
أضاليا 7، 12، 13، 63، 64، 65، 66، 59، 92،
الأناضول 15
أنطاليا= أضاليا
باب همايون 118
بازرجك 12، 79
البحر الأبيض 107
البحر الأسود 107
بحر مرمرة 82
البردر 8، 69، 92
البردل= البردر
بروسة 80
البسفور 11، 108
بوابة استانبول في أزنيق 81
بوغاز القسطنطينية 107
بيت الله الحرام 95
بيت المقدس = القدس
بيروت 12، 14، 15، 19، 45، 46، 47، 48، 52، 53، 55، 92
تربة ابو أيوب الأنصاري 6، 10، 20
تل أبيب 19
تل بلاطة 20
ثكنة داود باشا باستانبول 93
جامع أبو أيوب الأنصاري 86، 89، 101، 109
جامع الرملة الكبير 9، 33، 34
جامع السلطان أحمد 97، 113، 117
جامع السلطان بايزيد 112
جامع السلطان سليم الأول 182
جامع السلطان عبد المجيد 113
جامع السلطان محمد الفاتح 101، 111
جامع السلطان محمود 113
جامع السليمانية 112، 118
جامع الشاه زاده 113
جامع اللقللي 113
جامع النصر في نابلس 9، 33
جامع آياصوفية 113، 118
جامع نابلس 22، 33
جامع نور عثمانية 112
جامع يافا 10، 19
جامع يني جامع 113، 119
جبل النار 25
جت كرمل 25

جسر اسكدار 11
جلجولية 7، 29، 30
جيت 25
الحجاز 15، 95
حجة 25، 26، 27
الحرم الإبراهيمي 5
الحرم القدسي 5
حمام الآغا 94
حمام السراية ببيروت 48
حنتوس ببيروت 50
خان السندقلي 11
خان اللد 11
خان جلجولية 11
خان يني شهر 11
خداوندكار 72
خلقيدونية 86
دار الكتب المصرية 5، 7، 13
داود باشا، محلة باستانبول 93
درويد 11، 75
دمشق 76
دولمه بقجة، قصر 7
ديار بكر 15
دير اندريه في قبرس 12، 56، 58
الديل 82، 83
راس العجوز في قبرس 56، 57
رفيدة 12، 24
الرقة 101
الرملة 20، 21، 31، 34، 51، 72، 92
روميلي حصار 108
زاوية الأوزاعي 50
الزاوية الرفاعية بالقدس 5
سراي آثار النبوة 97
سراي أسماء سلطان 115
سراي السلطان 5، 6
سراي بكشطاش 11، 115
سراي بيروت 48
سراي بيلربيه 116
سراي شراق يالسي 11، 115
سراي همايون 97
سكالا 54
السماطية، محلة 94
السندقلي 72، 73، 74
سوق الطويلة ببيروت 50
سوق قابالي جارشي باستانبول 93، 94
سيناء 14، 19
الشام 15، 101
شزنيك 81
الشونيزي، مقبرة ببغداد 25
الشويطرة 23
طرابلس 51
الطوبخانه 113
طوزله في قبرس 54، 57

العراق 15
عزون 28
العلائية = علايا
علايا 7، 12، 59، 62، 92
عيسى قيسي، محلة باستانبول 93
غزة 12، 29، 32
فلسطين 14، 19، 31، 72
فندق 12، 27
قاضي كوي 86
القاهرة 51
قبر أبو السعود الجد 86، 87، 88، 92، 96، 101
قبر محمد أبو السعود باستانبول 6، 10، 20
قبرس 7، 12، 54، 55، 56، 92
القدس 5، 7، 19، 20، 39، 67، 106، 107
قرضلي 75
قرطل 12، 75، 85
قره جه، مقبرة 86
قزدرو 81
القسطنطينية 87، 88، 90 وينظر: استانبول
قصر بيلربيه 113
قصر دولمه بقجه 115
قطية 76
قلقيلية 28
القلمون 51
قناق عارف بك 94
كاغات خانه 101
كبري البشنجي 85
كفر قوع 5
كنيسة آيا صوفية 113
كوتاهية 13،64، 76، 77، 92
كيبزة 83، 85
لارنكا 54
لبنان 14، 19
اللد 72
متحف طوبقابي سراي 97
مدرسة الأوزاعي 50
مسجد الجنيد ببغداد 25
مصر 5، 59، 66
المغرب العربي 93
مقام أبو العباس قرب نابلس 10، 24
مقام الجنيد قرب نابلس 10، 24، 25
مقام الخضر في نابلس 9، 33
مقام علي بن أبي طالب، قرب الرملة 10، 35
مقام علي بن عليل، قرب أرسوف 10، 42، 43
مقبرة الشيخ جنيد 25
المكتبة الفخرية بالقدس 5

الموصل 15
نابلس 7، 9، 12، 20، 22، 25، 28، 29، 38، 92
نهاوند 25
نيابولس = نابلس
نيقية 80
النيل 11
وادي عزون 27
يافا 7، 19، 20، 21، 28، 35، 92
يرك 8، 67
يلاقدره 82
يني شهر 79، 80

فهرس الأقوام والأسر

أروام، روم 59
الإفرنج 33
آل أبو الزلف 37
آل أبو السعود 5، 6، 51
آل أبو الهدى الفاروقي 51
آل الخليلي 32
آل الخيري 51
آل الداعوق 47
آل الدجاني 39
آل العمري 42
آل الكلحة 63
آل المسلماني 51
آل عرفات 31
البيزنطيون 19
التركمان 67
الرومان 19
الصليبيون 19، 21، 31، 42، 72
العثمانيون 19، 21
الكنعانيون 91، 20، 28، 72
اليرك 67

فهرس الألفاظ والمصطلحات

الأزنيق، وهو الخزف 80
الأقة 60، 61
أوضة 11، 47
أوضة الكمرك 47
أوضة صاحبي 72، 74
البنش، رداء 63
بياري، ضرب من التفاح 12، 29، 32
التنباك 49
الخانجي 65
خرج، ج: أخراج 38
سدة المؤذن 9
سر عسكر 51
صَبَّن، فعل من صابون 49
صرة أميني 95
الطرّاحة، ما يطرح على السرير 48
عرابايه، بمعنى العربة 78
العرض الهمايوني 67

غرش 61، 64، 107
الفوط الحمويات 49
القراصنة 13
القصارة 40
القناق، بمعنى المخفر 93
قهوة، بمعنى مقهى 65، 82، 83
القوايق 11، 46، 107
القيمر = القيمق
القيمق، بمعنى القشدة 68
كَرْتَن، فعل من كرتن 63
كرنتينة 12، 55، 60، 61
الكمر، طية في الملبس 79
الكور، ج: أكوار 9، 32
كيو، بمعنى قرية 70
مركب نار، بمعنى الباخرة 50
المصرية، نقد 66
المفروكة، طعام 67
مقداف، ج: مقاديف 39، 86
يوالي، نوع من الدور 107

الفهرس

مقدمة 5
المؤلف 5
الرحلة 6
وصف المدن والقرى 8
خطتنا في التحقيق 13
النص المحقق 17
العزم على السفر 19
مغادرة نابلس 23
رفيدة 24
مقام الجنيد 24
جيت 25
حجة 25
الفندق 27
وادي عزون 28
جلجولية 29
الرملة 31
مقام علي 35
بيارة الصلاحي 37
ركوب البحر 39
أرسوف 42
عكا وصور 44
بيروت 45
حمام السراي في بيروت 48
الابحار من بيروت 53
قبرس 54
راس العجوز 56
دير اندريه 56
العلايا 59
أضالية 63
الطريق إلى كتاهيه 64
البردل 68
السندقلي 72
الدروند 75
كتاهيه 76
البازرجك 79
يني شهر 80
أزنيق 80
قزدرو 82
الديل 83
كيبزه 83
قرطل 85
أسكدار 85
مقام أبي السعود 87
مقام أبي ايوب الأنصاري 89

العودة إلى مقام أبي السعود 92
حمام الآغا 94
موكب السلطان في العيد 97
آثار النبوة 100
بوغاز البسفور 107
جوامع الآستانه 111
سرايات الآستانه 114
الحمامات والخانات 115
الفهارس 121